دكتور
فتحي عبد القادر فريد
أستاذ مساعد
بكلية اللغة العربية
بالقاهرة

من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م

توزيع
مكتبة النهضة المصرية
٩ ش عدلي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

حول إعجاز القرآن

يتفق علماء الإسلام والمهتمون بالقرآن الكريم والنظر فيه على أنه المعجزة الكبرى لسيدنا رسول الله ﷺ .

لكنهم لم يتفقوا على تحديد وجوه الاعجاز فيه وإن لم يختلفوا على أن بلاغة القرآن ومباينة أسلوبه لجميع الأساليب تعد أول الوجوه وأكثرها دلالة على تحقيق الاعجاز .

ومن العلماء من ذهب إلى أن إعجاز القرآن لاحد له ، ولا يمكن وصفه، ومن هؤلاء السيوطى الذى عد لاعجاز القرآن وجوها متعددة وختم كلامه عليها بقوله : « وقد أفرد علماؤنا رضى الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن وخاضوا فى وجوه إعجازه كثيراً منهم : الخطابى والرمانى ، والزملكانى ، والامام الرازى ، وبن سراقة ، والقاضى أبو بكر الباقلانى ، وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين والصواب أنه لانهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكى فى المفتاح : « اعلم ان إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما »(1) .

---

(1) السيوطى : معترك الأقران فى إعجاز القرآن ١ : ٣ ، ٤

ويمضى السيوطى فى موافقة السكاكى على صعوبة بل استحالة تحديد موطن الاعجاز من القرآن فيحكى فى ذلك مناقشة أوردها أبو حيان التوحيدى، قائلا: «قال أبو حيان التوحيدى: سئل بندار الفارسى عن موضع الاعجاز من القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف على المعنى، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الانسان من الانسان؟ فليس للإنسان موضع من الانسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته — كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا كان ذلك المعنى آية فى نفسه ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس فى طاقة البشر الاحاطة بأغراض الله فى كتابه — فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده(١)» .

ومن غير شك فإن التماس جهة محددة يتمثل فيها إعجاز القرآن الكريم عمل بالغ الصعوبة، وأكبر من قدرة الفكر البشرى، وأن ذلك سر سيظل مكنونا لا يعلمه إلا قائل هذا الكتاب العظيم ومنزله على نبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ .

هذا ولما كانت بلاغة القرآن الوجه الذى لم يختلف علماؤنا على كونه أول الوجوه وأظهرها لاعجاز القرآن، وذلك لتحققه فى كل سور القرآن وآياته وعباراته بينما لا يتحقق ذلك للوجوه الأخرى التى تظهر فى بعض السور والآيات دون بعضها الآخر رأينا أن نقف على بعض الوجوه البلاغية والأسرار البيانية من خلال أحد تلك الوجوه وهو الوجه القصصى بدراسة إحدى قصص القرآن التى وردت فى سورة واحدة وهى: سورة يوسف، لنكون بهذه الدراسة اللغوية والبلاغية لتلك القصة القرآنية كمن أصاب غرضين وحقق هدفين .

وقبل أن نأخذ سبيلنا إلى تلك الدراسة يحسن بنا أن نعرف شيئا

---

(١) السيوطى : معترك الأقران فى إعجاز القرآن ١ : ١١

عن الوجه القصصى لاعجاز القرآن الكريم — القائلون به والغرض من القصة فى القرآن — والفرق بين القصة القرآنية وحكايات المؤرخين — والتكرار فى القصص القرآنى(١).

وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) السيوطى : معترك الأقران فى اعجاز القرآن ١ : ١١

الإعجاز فى القصص القرآنى

لقد عد بعض الباحثين فى إعجاز القرآن ما ورد فيه من آيات عديدة تحكى أحوال العصور الماضية والأمم السابقة مع كون النبى ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب وجها من أوجه إعجازه ، فالبا قلانى يعد ذلك وجها من أوجه ثلاثة يتمثل فيها الإعجاز عنده فيقول : « والوجه الثانى : أنه كان معلوما من حال النبى ﷺ أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وانبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما صار إليه أمره من الخروج من الجنة ، ثم جملا من أمر ولده وأحواله وتوبته ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمره ، وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين فى القرآن ، والملوك والفراعنه الذين كانوا فى أيام الأنبياء صلوات الله عليهم ، ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم ، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى ، ولذلك قال عز وجل : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)(١) .

وقال : (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست)(٢) .

وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة »

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٨
(٢) سورة الأنعام: ١٠٥

لم يخف على الناس أمره ، ولم يختلف عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم وإن كان نادرا و كذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعليم، وليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة ومتعلمها فلو كان منهم لم يخف أمره »(١) .

فنلاحظ أن هذه البراهين التى يسوقها «الباقلانى» لتأكيد الإعجاز فى هذا الجانب براهين صادقة لا نكاد نجد لها نقضا ، ولا نرى فى جهة دلالتها على صحة النبوة شيئا من الغموض والإبهام .

ولذلك اعتمدها القرآن فى كثير من آياته كدلائل على صدق الرسول فقال فى سورة هود بعد قص قصص الأنبياء والمرسلين : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »(٢) .

وقال فى سورة يوسف : «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »(٣) .

وقال فى سورة آل عمران بعد أن ذكر ولادة مريم وقبول الله تعالى لها ، وكفالة زكريا عليه السلام لها « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون »(٤) .

وقال فى سورة القصص بعد أن قص جملة من أخبار الأنبياء كموسى

---

(١) البلاقلانى : إعجاز القرآن : ٦١ ، ٦٢ شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجى ط أولى : ١٩٥١

(٢) سورة هود : ٤٩

(٣) سورة يوسف : ٣

(٤) سورة آل عمران : ٤٤

وشعيب ، وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنــــذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »(١) .

وقال فى سورة « ص » ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلا إنما نذير مبين »(٢) .

وجميع هذه الآيات صريحة فى أن ورود هذا القصص على لسان النبى الأمى إنما كان آية من آيات الوحى وأمارة من أمارات النبوة »(٣) .

أهداف القصص القرآنى :

ويمكن إجمال فوائد القصص القرآنى فى النقاط الآتية :

١ — بيان أن دعوة الرسل جميعا واحدة . وأن الدين الذى جاء به الجميع واحد ، فلاعذر لمن يتخلف عن الإجابة ، يشير إلى ذلك قوله تعالى: [وما أسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون](٤) وقوله تعالى : [قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون](٥)

---

(١) سورة القصص : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة ص : ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) الباقلانى : إعجاز القرآن : ٧٦ .

(٤) الأنبياء : ٢٥

(٥) الأنبياء : ١٠٨ .

وقوله تعالى :[أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده](١) بعد قوله : [وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه](٢) الخ الايات التى تضمنت ذكر كثير من الأنبياء وأنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة ، فقد دلت هذه الآيات وغيرها على أن ما أوحى به إلى الأنبياء ومن توحيد الله وتنزيهه هو ما أوحى به إلى النبى ﷺ ، وأنه قد أمر أن يقتدى بهدى الأنبياء السابقين(٣) .

٢ — تثبيت النبى ﷺ وتثبيت من آمن به، إذا علموا أن مآل الثبات فى سبيل الدعوة وجهاد الأعداء هو الفوز والعزة للنبى ﷺ وللمؤمنين وأن مآل من يعاديهم هو الخذلان والذل والوبال بما جرت به سنة الله مع أنبيائهم ، وفى ذلك تأديب الأمة وتهذيبها .

فقد ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم ، ثم ذكر فى غير موضع تحذيرهم من صنيع الأعداء وحثهم على صنيع الأولياء(٤) .

٣ — أحياء ذكر الأنبياء والأولياء الماضين وتخليد آثارهم ما بقى القرآن محفوظا إلى قيام الساعة ، وفى ذلك رغب الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حيث قال : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين »(٥) .

٤ — أعلام النبى ﷺ وأمته بأحوال الأنبياء والأمم فتكون لهم

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

(٢) الأنعام : ٨٣ .

(٣) محمد على سلامه : مذكرات فى علوم القرآن : ص : ٩٩ ، ١٠٠ ط ثالثة : ١٩٤٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق .

القدرة التامة على محاججة أهل الكتاب فيما يكذبون به ومايكتمونه من الحق ، انظر إلى قوله تعالى : «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »(١) وإلى غير ذلك من الآيات .

٥ — أن يكون ذلك من أعظم الآيات الدالة على صدق النبى ﷺ لأنه يخبر بما تطاولت عليه القرون وتقادمت عليه العهود من غير أن يقرأ فى كتب ولم يعرف القراءة ولا الكتابة فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه بتعليم الله الخالق لكل شىء(٢) .

٦ — دفع تعنت أهل الكتاب فى أسئلتهم التى كانوا يريدون بها تعجيز النبى ﷺ ، فكان ذكر بعض القصص يرد تعنتهم ويدفع لجاجهم ، وربما جر كثيرا منهم إلى الدخول فى الإسلام لما بهرهم من أدلة صدقه(٣) .

٧ — تصديق الأنبياء السابقين فيما قاموا به من دعوة أممهم وجهادهم ، ولذا كانت هذه الأمة شهداء على الناس بما قصه الله من أحوال الماضين فى القرآن الكريم ، قال تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٤) :

٨ — تربية الأمه المحمدية بذكر جميع الأخلاق الفاضلة وأصولها التى أطبقت الشرائع جميعها على وجوب التحلى بها وبيان أصول الأخلاق السيئة التى نفرت منها جميع الشرائع ، وبيان مايجب من الآداب نحو الأنبياء ليجتمع فى هذه الأمة ماتفرق فى غيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب

(١) آل عمران : ٩٣ .
(٢) المرجع السابق : ص : ١٠٠ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق : ص : ١٠٢ .

ولذا كان النبي ﷺ متمما لمكارم الأخلاق(١) .

٩ — التأسي بأولى العزم من الرسل فيما لاقوه فى سبيل الدعوة إلى الله من الأذى مهما كان نوعه ، وهم مع ذلك ثابتون على مبدئهم القويم ودينهم الحق لم يعترهم وهن ولاضعف ، ولم تفتر لهم همة ولم يخالجهم شك إلى أن قضى الله أمره وأنجز لهم وعده »(٢) .

١٠ — تجدد الأمل فى نفوس المؤمنين بنصر الله لهم وإهلاك عدوهم، كلما تجمعت عوامل اليأس عندهم لقوله تعالى : [حتى إذا استيئس الرجل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين(٣) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة يوسف : ١١٠ .

وقد أشار أبوحيان إلى بعض هذه الفوائد فى تفسيره لقوله تعالى من سورة هود: « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » الآية : ١٢٠ — بقوله : تثبيت الفؤاد هو بما جرى للانبياء عليهم الصلاة والسلام ولأتباعهم المؤمنين ومالقوا من مكذبيهم من الأذى فى هذا كله أسوة بهم إذ المشاركة فى الأمور الصعبة تهون مايلقى الإنسان من الأذى ، ثم الإعلام بما جرى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح ورجفة وخسف وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس وتأنيس بأن يصيب الله من كذب الرسول ﷺ بالعذاب كما جرى لمكذبى الرسل وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له ولأتباعه كما اتفق للرسل وأتباعهم .

أبو حيان : البحر المحيط ٥/٢٧٤ ط ثانية — دار الفكر .

فتلك بعض فوائد القصص القرآنى والتى من أجلها عدها بعض الباحثين فى إعجاز القرآن وجها من وجوه إعجازه .

والمؤلف لايرى بأسا من عد الجانب القصصى وجها من أوجه الإعجاز على أن يكون وجها تابعا وعنصرا ثانويا ، أما الوجه المتبوع والعنصر الأصيل فهو البلاغة والنظم .

ولو دققنا النظر لرأينا أن هذه القصص كانت حقلا خصبا وميدانا فسيحا للإعجاز البلاغى ، ففى هذا القصص تجلت براعة النظم وبرزت أسرار البلاغة .

قصص القرآن وحقائق التاريخ :

وبينما يرى الباقلانى وغيره أن إخبار القرآن بأحوال الأمم السابقة والعصور الماضية دليل لايحتمل الشك وشاهد لايحتمل النقض على نبوته ﷺ وأنه فى نفس الوقت وجه من أوجه الإعجاز القرآنى ، فإن كثيرا من الملاحدة والطاعنين على الإسلام يعترضون على عد هذا الوجه من الإعجاز زاعمين أن هذه الأخبار التى وردت فى القرآن عن أحوال الأمم الماضية لم تكن جديدة فمعظمها كان معروفا لأهل الكتاب .

والنقطة الثانية التى يعترضون بها على هذا الوجه زعمهم بأن بعض أخبار القرآن قد جاءت مخالفة لوثائق التاريخ .

وقد تصدر كثير من الأعلام المعاصرين لرد هذه الافتراءات ودفع تلك الاعتراضات ، فالإمام الشيخ « محمد عبده » يرى أن القصة لم تكن هدفا أصيلا من أهداف القرآن ، وإنما ذكر ما ذكر منها لأجل الموعظة والعبرة والهدايه ، فلم يكن القرآن كتابا تاريخيا حتى يؤخذ عليه التقصير فى ذلك ، والقرآن فى سبيل هذا كان يكتفى من القصة بما فيه العبرة والموعظة

ولا يلتفت لبقية التفاصيل فيقول فى ذلك : « يظن كثير من الناس الآن، كما ظن كثير ممن قبلهم ، أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخا ولا قصصا ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها . ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال: [لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب(١)] وبيان سنن الاجتماع كما قال : [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين(٢)] وقال : [سنة الله التى قد خلت فى عباده(٣)] وغير ذلك من الآيات ، والحوادث المتقدمة منها ما هو معروف والله تعالى يذكر من هذا وهذاك ما شاء أن يذكر لأجل العبرة والموعظة فيكتفى من القصة بموضع العبرة ومحل الفائدة ، ولا يأتى بها مفصلة بجزئياتها التى لا تزيد فى العبرة بل ربما تشغل عنها ، فلا غرو أن يكون فى هذه القصص التى يعظنا الله بها ويعلمنا سننه ما لا يعرفه الناس ، لأنه لم يرو ولم يدون بالكتاب، وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين فى هذه الأزمنة إلى الاقتداء بهذا فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون منه الأحكام الاجتماعية وهو الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذى يذهب بالثقة ، ولما فى قراءتها من الإسراف فى الزمن والإضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم فى مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن فى المصنفات التى تستقصى الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا(٤)».

---

(١) سورة يوسف : ١١١
(٢) سورة آل عمران : ١٣٧
(٣) سورة غافر : ٨٥
(٤) محمد رشيد رضا : المنار : ٢/٤٧١ ط أولى

ثم يؤكد الإمام الشيخ [محمد عبده] فيما كتبه عنه تلميذه : [السيد محمد رشيد رضا] أن ما جاء به القرآن فهو الحق وما عداه فهو كذب وتلبيس وزور ، وأنه لو سلك القرآن مسلك كتب التاريخ في سرد التفاصيل والعناية بالجزئيات لذهبت ثمرته ولضاعت قيمته في الهداية والإرشاد فيقول : «فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفكارنا في استخراج العبر منه . . . . وإذا ورد في كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره هو الصادق ، وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطىء أو كاذب ، فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه ، فإن حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى ، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر كان يجب عليهم لو أنصفوا أن يؤرخوا به أجمعين(١) » .

وعلى هذا يرى الاستاذ الإمام أن ماصنعة القرآن هو الحق وأن طريقته هي الطريقة المثلى في تقرير الحقائق بصورة كلية ليست مجالا للاختلاف ، وأما ما عداه من الكتب السماوية فقد تغيرت أسانيدها ودخلها التحريف والتغيير . وجملة القول : أن طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة وما كان لمحمد الأمي الناشيء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي إليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكنها هداية الله تعالى لعباده أوحاها إلى صفوته منهم [وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله(٢)] فعلينا وقد ظهرت الآية ووضحت السبيل ألا نلتفت إلى روايات

---

(١) المرجع السابق : ٢/٤٧٢

(٢) سورة الأعراف : ٤٣

الغابرين فى تلك القصص ، ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهة نبالى بكشفها . . .
فإن قيل : أن قصص العهدين العتيق والجديد التى يسمى مجموعها [الكتاب المقدس] هى وحى من الله شهد لهـا القرآن وهى تعارض بعض قصصه قلنا . أولا : أن تلك الكتب ليس لها أسانيد متصلة متواترة ، وثانيا : أن القرآن إنما أثبت أن الله تعالى أعطى موسى عليه السـلام التوراة وهى الشريعة وأن أتباعه قد حفظوا منها نصيبا ونسوا نصيبا ، وأنهم حرفوا النصيب الذى أوتوه ، وأنه أعطى عيسى عليه السلام الإنجيل وهو مواعظ وبشـارة ، وقال فى أتباعه مثل ما قال فى اليهود : [فنسوا حظا مما ذكروا به](١) ، .

أما الأستاذ الدكتور : [محمد أحمد خلف الله] فقد رأى أن إعجاز القرآن أصلا يتمثل فى سحره وبيانه وأن عد هـذه الأخبار الواردة فى القرآن عن أحوال الأمم الماضية من أوجه إعجازه مما يسيء إلى القرآن ويفتح لأفراد السوء والطاعنين على الإسلام والحاقدين الزارين عليه منافذ للطعن ومجالا للكذب والافتراء إذ أن معظم هذه الأخبار كانت معروفة ، وأن القرآن نفسه لم يجعلها موطن التحدى ومناط الإعجاز ولقد « أحصى العقل الإسلامى كل هذه الأشياء فتبين له أن ما يقدمه المذهب التاريخى فى فهم القصص القرآنى من خير أقل بكثير مما يقدمه من شر ونكر وبلاء .... فكر العقل الإسلامى فى هـذه الأخبار فرأى أولا أن الكثير منها كان معروفا بالجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية . وفكر العقل الإسلامى فى هذه الأخبار فرأى ثانيا أن تلك الأقاصيص التى يعتمد عليها القرآن فى الإيحاء بنبوة النبى وصدق رسالته، لا تشتمل على أخبار يستحيل معرفتها ، وهى على العكس من ذلك أخبار معروفة لدى أهل الكتاب، وإذا كان هناك من استحالة

---

(١) المرجع السابق : ٤٧٤ . الآية : ١٤ من سورة المائدة .

فإنها الاستحالة العاديه التي تقوم على أمية النبي محمد عليه السلام أو تقوم على التفصيلات الدقيقه لهذه الأخبار ، وفكر العقل الإسلامي في هذه الأخبار فرأى ثالثاً أن القول بأنها إحدى المعجزات لا يدحض أقوال المشركين أولئك الذين قالوا بأن محمداً عليه السلام يكتتب هذه الأخبار ، وأنه يعلمه إياها بشر ، وأنهم لو شاءوا لقالوا مثلها ، وأنهم قد قصوا بالفعل أخبار رستم وأحاديث اسفنديار . وإن قريشاً كانت تستملح هـــذه الأقاصيص وتنصرف عن محمد عليه السلام إلى المعارضين للنبي والقرآن ، فكر العقل الإسلامي في كل هذه الأشياء وانتهى به التفكير إلى أن القرآن نفسه لم يجعل هذه الأخبار موطن التحدي ومناط الإعجاز وإنما جعل الإعجاز كل الإعجاز في قوة التأثير وسحر البيان »(١) .

ويصل الأستاذ [خلف الله] إلى تقرير أنه ليس في هذه الأخبار تحد ولا إعجاز وإن كانت شاهداً ودليلا على نبوته ﷺ ، وأن عدها مجالا للتحدي وسبيلا إلى الإعجاز خطر على الإسلام والقرآن فيقول: « التحدي إنما يقوم كما رأيت على قوة التأثير وسحر البيان ومن هنا لا نستطيع أن نعد هذه الأخبار التي جاءت في القصص القرآني إحدى المعجزات ، أما إن هذه الأخبار قد أفادت كثيراً في الإيحاء بنبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته فهو الأمر الذي لا ننكره بل نقربه ونؤكده »(٢) .

ثم يذكر الأستاذ [محمد أحمد خلف الله] ماذكره الأستاذ الشيخ [محمد عبده] من أن المعاني التاريخية لم تكن من مقاصد القرآن في شيء ، وماذكره القرآن منها فمقصود به تحقيق هدفه العام من الهداية والعبرة

---

(١) د . محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم : ٣٨ — ٤١ ط ثانية : ١٩٥٧

(٢) المرجع السابق .

والموعظة فيقول « إن قصد القرآن من هذه المعانى إنما هو العظة والعبرة ، أى فى الخروج بها من الدائرة التاريخية إلى الدائرة الدينيه ومعنى ذلك أن المعانى التاريخية من حيث هى معان تاريخية لا تعتبر جزءا من الدين أو عنصرا من عناصره المكونة له ، ومعنى هذا أيضا أن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده »(١) .

ويرى الأستاذ [محمد أحمد خلف الله] أن عدم اهتمام القرآن بمعانى التاريخ ، وأن تلك المعانى لم تكن مقصدا من مقاصده الأصيلة يتمثل فى :

١ — إهماله حين يقص لمقومات التاريخ من زمان ومكان ، فليس فى القرآن الكريم قصة واحدة عنى فيها بالزمان ؛ أما المكان فقد أهمل إهمالا يكاد يكون تاما لولا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك والتى لم يلفت القرآن الذهن إليها إلا عرضا ، على أن القرآن عمد إلى إهمال الأشخاص فى بعض أقاصيصه إهمالا تاما (٢) .

٢ — اختياره لبعض الأحداث دون بعض ، فلم يعن القرآن بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص أو الحاصلة فى أمة تصويراً تاما كاملا ، وإنما كان يكتفى باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه ، أى ما يلفت الذهن إلى مكان العظة وموطن الهداية ولعله من أجل ذلك كان القرآن يجمع فى الموطن الواحد كثيرا من الأقاصيص التى تنتهى بالقارىء إلى غاية واحدة(٣) .

٣ — أنه كان لا يهتم بالترتيب الزمنى أو الطبعى فى إيراد الأحداث

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق : ص ٥١

(٣) المرجع السابق ص ٥١

وتصويرها ، وإنما كان يخالف فى هذا الترتيب ويتجاوزه . . . وإسناده بعض الأحداث لأناس بأعينهم فى موطن ثم إسناده نفس الأحداث لغير الأشخاص فى موطن آخر . . . وإنطاقه الشخص الواحد فى الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة(١) .

٤ — اختيار القرآن لبعض الرسل دون بعض ، وإطالة الحديث عن بعض الرسل دون بعض ، وتأخيره تصوير بعض الأحداث من حياة الرسول وتعجيله بتصوير بعض ، واختياره لغه المرسل إليهم لتكون لغة الوحى والرسالة ، إن هذا كله هو الدليل على أن القرآن لم يقصد من قصصه إلى التاريخ(٢) .

وينتهى الأستاذ [خلف الله] إلى أنه ليس علينا من بأس إذا استعملنا عقولنا وقلنا رأينا فى هذه الأحداث وتلك المعانى ما دام القرآن لم يقصد منها إلا العبرة والموعظة . فهذا هو رأى الأستاذ الإمام الشيخ [محمد عبده] والدكتور [محمد أحمد خلف الله] فيما عده الطاعنون على القرآن من مخالفة ما جاء فى قصصه لحقائق التاريخ .

ويرى المؤلف أن الأحداث التاريخيه الواردة فى القرآن دليل أكيد على صدق نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام كما أنها وجه من أوجه الإعجاز القرآنى ، لكنه وجه ثانوى أو تابع ، بعد الوجه الأصيل والمتبوع وهو البلاغة والنظم ، كما يوافق الباحث على ما قرره الأستاذ الإمام وتبعه فيه الدكتور [خلف الله] من أن القرآن ليس كتاب تاريخ وأن المعانى التاريخية لم تكن مقصدا من مقاصده ، أما ماذهب إليه الأستاذ [خلف الله]

(١) المرجع السابق ص ٥١ — ٥٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٥١

من مخالفة القصص القرآنى لحقائق التاريخ وأن ذلك مذهب معروف فى جميع اللغات ، فهـــذا ما لا يرضاه المؤلف ولا يقره ، فالقرآن كله حق وما جاء فيه فهو صدق ، وأنه لم يعن بالتفصيلات وإنما عنى بالكليات والحقائق الثابتة والنظريات العامة التى لا تحتمل اختلافا ، أما ما يعتمدون عليه من وثائق التاريخ وكتب اليهود والنصارى ، فإنها حرفت وغيرت فلا يحتج بها على ما ورد فى القرآن .

ثم ننتقل إلى نقطة ثانية كثر من حولها الطعن على القرآن الكريم ، والتقليل من بلاغته ، والتهوين من بيانه ، وعند التحقيق سنرى أن ما عابوه على القرآن بسببها كان وجها بارزاً من وجوه بلاغته ، وميدانا فسيحا تجلت فيه براعته ، هذه النقطة التى تعلق بها الطاعنون هى : التكرار فى قصص القرآن وآياته .

بلاغة التكرار فى قصص القرآن :

كان التكرار الذى يقتضيه السياق ويتطلبه المقام عند عرض بعض جوانب القصة فى القرآن الكريم ، مجالا لكثير من الحاقدين ومغمزا للطاعنين والملحدين ، فأخذوا يشككون فى بلاغة القرآن ، ويتهمون القرآن بالنقص فى التسلسل ، وتكرير الألفاظ والعبارات بلا مبرر ، وكثرة الانتقال فى سياق الكلام من صيغة إلى صيغة ومن حال إلى حال(١) .

وهذا الذى عابوه على القرآن يتبين لنا عند النظر والتأمل أنه من أسرار بلاغة القرآن ومن وجوه بيانه وإعجازه .

---

(١) أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ص ٦١ ط أولى بيروت : ١٩٦٠

ولقد حظى هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديما وحديثا واستغرق قدرا كبيرا من جهدهم ، وما من مؤلف فى البلاغة والنقد قديما وحديثا إلا تناول بلاغة التكرار وسر روعته فى القرآن الكريم .

فالخطابى يرى أن التكرار بلاغة وترك التكرار فى الموضع الذى يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول « تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا وليس فى القرآن شىء من هذا النوع ، والضرب الآخر : ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها »(١) .

ويذكر الخطابى السر فى تكرار القصص والأخبار فى القرآن بأنه للموعظة والعبرة والتذكير بنعم الله والتحذير من نقمه فيقول: « وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذى من أجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن فقال سبحانه :[ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون](٢) وقال تعالى : [وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا] »(٣) .

ولما كان هذا التكرار ملحوظا فى بعض السور يكثر فيها ظهورا بينا فقد وقف الخطابى ليبين السر فى كثرة التكرار فى تلك السور ،

---

(١) الخطابى : بيان إعجاز القرآن : ٥٢ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . ت : د . محمد خلف الله و د . محمد زغلول سلام .

(٢) سورة القصص ٥١

(٣) سورة طه ١١٣

وذلك كسورتى الرحمن والمرسلات ، فبين أن التكرار كان فى الأولى للوعد بثوابه وفى الثانية للوعيد بعقابه ، وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدد عليهم أنواع نعمه التى خلقها لهم فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه وهى أنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو فى سورة «المرسلات» ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ فى القرآن وأوكد لإقامة الحجة والإعذار ، ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة »(١) .

ورد الخطابى على ماقد يكون هناك من تساؤل فى مجىء التكرار فى سورة الرحمن عقب التوعد بالعذاب والانتقام مع أن الهدف منه فى السورة كلها هو التذكير بالنعم فذكر أن التحذير من العقاب والتخويف من الهلاك والتوعد بذلك أيضاً من نعم الله على الإنسان لكى يحذر ويخاف فلا يقع فى المعصية ، يقول الخطابى : « فإن قيل : إذا كان المعنى فى تكرير قوله [فبأى آلاء ربكما تكذبان] تجديد ذكر النعم فى هذه السورة واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله : [يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران](٢) ثم أتبعه قوله : [فبأى آلاء ربكما تكذبان](٣) وأى موضع نعمة هاهنا؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير والدخان المستطير ، قيل: إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشر من ثوابه على طاعته ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها ، وإنما تحقق معرفة الشىء بأن يعتبر بضده ليوقف على حده ، والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذواتهما فإنهما متوازيان

---

(١) المرجع السابق
(٢) سورة الرحمن : ٣٥
(٣) سورة الرحمن : ٣٦

فى موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثات وإن أصابك بؤسها
فهو الذى أنباك كيف نعيمها

وإذا كان كلام «الخطابى» عن بلاغة التكرار قد جاء على سبيل العموم من غير لتفصيل بين التكرار فى القصص وبين التكرار فى غير القصص، فإن «القاضى عبد الجبار» قد وقف عند التكرار فى القصص القرآنى، ورد طعن الطاعنين بسببه، وبين أنه من الوجوه التى تجلت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه، كما بين أن هذا التكرار كان تسلية للرسول ﷺ وتثبيتا لفؤاده على مدى ثلاث وعشرين سنه هى مدة نزول القرآن كما ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون فى الموطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة .

يقول «القاضى عبد الجبار» فيما حكاه عن شيخه «أبى على» تحت عنوان (فصل : فى بيان فساد طعنهم فى القرآن من جهة التكرار) «اعلم . . أن شيخنا «أبا على» قد أشبع القول فى ذلك . . فذكر أن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة فى مواطن متفرقة، بألفاظ مختلفة لأغراض تتجدد فى المواطن ، وفى الأحوال ، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل ، لا من دلالة المعايب فى الكلام ، وإنما يعاب التكرار فى الموطن الواحد على بعض الوجوه ، قال : وإنما أنزل الله تعالى القرآن على رسوله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنه ، حالا بعد حال ، وكان المتعالم من حاله عليه السلام : أنه يضيق صدره لأمور عارضة من الكفار والمعارضين ، ومن يقصده بالأذى والمكروه، فكان جل وعز يسليه لما ينزل عليه من أقاصيص من تقدم من الأنبياء عليهم السلام ، ويعيد ذكره بحسب ما يعلمه من الصلاح ولهذا قال تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به

فؤادك)(١) فبين أن هذا هو الغرض وإذا كان ضيق الصدر يتجدد ، والحاجة إلى تثبيت الفؤاد حالا بعد حال تقوى ، فلا بد عند تثبيت فؤاده وتصبيره على الأمور النازلة ، أن يعيد عليه ما لحق المتقدمين من الأنبياء من أعدائهم ويعيد ذلك ويكرره ، فيجتمع فيه الغرض الذى ذكرناه ، وأن يعرف أهل الفصاحة عند تأمل هذه القصص ، وقد أعيدت حالا بعد حال ما يختص به القرآن من رتبة الفصاحة ، لأن ظهور الفصاحة ومزيتها فى القصة الواحدة ، إذا أعيدت أبلغ منها فى القصص المتغايرة ، فهذا هو الفائدة فيما تكرر فى كتاب الله تعالى ، من قصة «موسى» و «فرعون» وسائر الأنبياء المتقدمين ، وإن لا بد من زيادة فوائد فى ذلك تخرجه من أن يكون تكرار الجملة ، وهذا بمنزلة الواعظ والخطيب ، الذى إذا ذكر قصة وعظ بها ، وذكر من قصص الصالحين وأخبارهم لم يمتنع بعد مدة أن يعلم الصلاح فى إيراده ، فلا يكون ذلك معيبا ، بل ربما لا يعاب ذلك فى المجلس الواحد إذا اختلف الغرض فيه »(٢) .

كما يرى « القاضى عبد الجبار » أنه قد يكون السر فى هذا التكرار فى قصص القرآن ، أن يكون تسجيلا لكلام السابقين والأحداث التى وقعت لهم ، فيكون هذا التكرار مختصا بكل حالة ، فيقول فى ذلك : « على أن كثيرا مما ذكره الله تعالى فى قصص الأنبياء المتقدمين ، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم فى أوقات ، فكان ذكره بحسب تكراره ، وذلك مما يدل على عظم شأن القرآن أيضا »(٣) .

---

(١) سورة هود : ١٢٠

(٢) القاضى عبد الجبار : المغنى : ١٦ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ ت : أمين الخولى مطبعة دار الكتب المصرية : ١٩٦٠

(٣) المرجع السابق : ص : ٤٠٠

ويقف « القاضي عبد الجبار » عند بعض السور التي ظهر فيها التكرار ظهورا واضحا ، ليتفي عنها طعن الطاعنين ويبين أن البلاغة حاصلة فى ذلك التكرار ، كما وقف عند سورة (الكافرون) وبين السبب فى نزولها وأن بلاغتها قائمة على ما بها من تكرار ، فيقول فى ذلك : « وأماما يطعنون به مما يزعمون أنه تكرار فى سورة « قل يأيها الكافرون » فقد بين «أبو على» أنه وإن أشبه فى اللفظ التكرار، فليس بتكرار، لأن المراد به : ألا أعبد ما تعبدون اليوم ، وأراد بقوله : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أنكم غير عابدين لما أعبد اليوم ، وأراد بقوله : (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى : ولا أنا عابد ما عبدتموه فيما سلف، لأنهم كانوا يعبدون فى المستقبل من الحجارة والأوثان غير ما عبدوه من قبل ، وعنى بقوله:(ولا أنتم عابدون ما أعبد) أنكم لا تعبدون ما أعبده بعد اليوم»[1] .

ويوضح « القاضى عبد الجبار » السبب فى نزول السورة الكريمة ، كما يوضح أن البلاغة فيما بنى عليه هذا التكرار فيقول « وإنما أنزل عز وجل ذلك لأن قوما من الكفار قالوا لرسول الله ﷺ ، اعبد ما نعبده اليوم سنة ، حتى نعبد ما تعبده أنت اليوم سنة ، واعبد أنت ما نعبده سنة أخرى ، حتى يشترك فى العبادة على هذا السبيل، فأنزل الله تعالى هذه السورة جوابا لهم ، ولا يصح فى الخطاب إذا قصد به هذا الوجه إلا أن يورد على هذا الحد ، وليس المعتبر بتكرار اللفظ. لأنا نعلم أن الحروف والكلمات متكررة فى كل الكلام ، وإنما المعتبر بالأغراض والمقاصد»[2].

وأما (أبو هلال العسكرى) فقد ذكر التكرار عند حديثه عن الإطناب،

---

(١) المرجع السابق : ٣٩٩

(٢) المرجع السابق :

وبين أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام ، وأنه قد كثر فى القرآن فى خطاب بنى إسرائيل لقلة فهمهم فيحتاجون إلى الشرح والإيضاح والتأكيد ، بينما كان الخطاب للأعراب بالإشارة والوحى لعدم حاجتهم إلى ذلك ، ومثل له من القرآن وفصيح الشعر(١) .

« والشريف الرضى » يقرر أن ما يتوهم أنه تكرير فى القرآن فليس بتكرير وإنما هو من مقتضيات المقام ومن مستلزمات الحال ، فيقول فى قول الله تعالى : « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد »(٢) .

إن عبارة « ويحذركم الله نفسه » ليست عين العبارة المماثلة لها فى الآيات السابقه عليها فى قوله : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » فيبين (الشريف الرضى) أن الثانية غير الأولى ، وكل منهما قد استعملت فى غرض غير الغرض الذى استعملت فيه الأخرى ، وهو فى ذلك يرد على من يعترض على ذلك ويعده من قبيل التكرار فيقول : « فان قال قائل : إنه تعالى كرر قوله : (ويحذركم الله نفسه) فى موضعين متقاربين من هذه السوره فما الفائدة فى ذلك ؟ .

فالجواب : أن ذلك ليس بتكرار ، لأن الذى عناه بالآية الأولى غير

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين : ١٤٤ ط أولى
(٢) سورة آل عمران : ٣٠

الذى عناه بالآية الأخرى ، لأن الأولى إنما حذرهم فيها عقابه على موالاة الكفار ، والثانية إنما حذرهم فيها ذلك على مواقعة سائر المعاصى ، فحسن إعادة التحذير عند كل منهى عنه ، ليكون الخوف أعم والزجر أبلغ ، وليعلم أيضا أن الجهتين فى العقاب على حد سواء ، فيكون التناهى عن أحدهما كالتناهى عن الآخر ، وقد يجوز أيضا أن تكون الآية الثانية نزلت بعد الأولى بزمان متراخ فحسن التكرار فيها ، لانفراج مابين الأولى وبينها[(١)] » .

« والشريف المرتضى » كذلك قد تحدث عن بلاغة التكرار فى السور التى يظهر فيها التكرار ظهورا بينا ، وبين أن البراعة فى هذا التكرار كسور الرحمن والمرسلات والكافرين[(٢)] ، وعرض الشريف المرتضى لبيان بعض الأسرار البلاغية التى تكمن وراء اختلاف التعبير وتنوع الأسلوب فى القصة الواحدة ، كعصا موسى عليه السلام التى عبر عنها فى موضع بأنها انقلبت ثعبانا وفى موضع آخر بأنها تحولت إلى جان ومايتوهم من التناقض فى ذلك ، فوضح « الشريف المرتضى » أن ذلك الاختلاف ناشىء عن تنوع الغرض واختلاف المقام ، وهو يقول : « فإن سأل سائل فقال : ما تقولون فى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : [فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين][(٣)] .

---

(١) الشريف الرضى : حقائق التأويل فى متشابه التنزيل : ٥/٨٢ شرح : محمد الرضا آل كشف الغطاء . ط النجف : ١٩٣٦

(٢) الشريف المرتضى : أمالى المرتضى : ١ : من : ١٢٠ — ١٢٧ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم . ط أولى : الحلبى : ١٩٥٤

(٣) الشعراء : ٣٢

وقال فى موضع آخر : [وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب(١)] والثعبان هو . الحية العظيمة الخلقة ، والجان : الصغير من الحيات ، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة ؟ وكيف يجوز أن تكون العصا فى حالة واحدة من صفة ما عظم خلقه من الحيات ، وبصفة ما صغر منها ؟ وبأى شىء تزيلون التناقض عن هـذا الكلام ؟ الجواب : . . إن الذى ظنه السائل من كون الآيتين خبرا عن قصة واحدة باطل ، بل الحالتان مختلفتان ، فالحال التى أخبر عن العصا فيها بصفة الجان كانت فى ابتداء النبوة ، وقبل مصير موسى عليه السـلام إلى فرعون ، والحال التى صارت العصا فيها ثعبانا كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة ، والتلاوة تدل على ذلك ، وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة(٢)» .

وإذا كان تفسير هؤلاء الباحثين المتقدمين لبلاغة التكرار فى القرآن يتسم بالتعميم ، وتكاد معظمها تتفق على أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام : كالتأكيد والوعد والوعيد ، فإن « جار الله الزمخشرى » قد نهج نهجا موضوعيا تطبيقيا فى شرح الأسرار البلاغية للتكرير فى سور القرآن الكريم ، وهو منهج يقوم على التحليل النفسى والتعمق والتغلغل فى كشف الأسرار النفسية والبواعث البلاغية التى بسببها كان هذا التكرار فى كلام الله عز وجل وفى القصص التى ساقها ، إذ يرى الزمخشرى « أن فى التكرير تقريرا للمعانى فى الأنفس ، وتثبيتا لها فى الصدور(٣)» .

---

(١) القصص : ٣١

(٢) الشريف المرتضى : أمالى المرتضى ١ : ١٢٠ — ١٢٧

(٣) د . درويش الجندى : النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى : ص : ٢ ط نهضة مصر ١٩٦٩

ومن ذلك قوله تعالى : [إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين] فيقول الزمخشرى : « كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها هذه الآية لأن كل قصة كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأن فى التكرير تقريرا للمعانى فى الأنفس(١) » .

ومنه قوله تعالى : « فذوقوا عذابى ونذر » وقوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » يقول الزمخشرى : « فائدة تكرار « فذوقوا » « ولقد يسرنا » أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث عليه على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات .. لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة »(٢) .

فأسلوب التكرار من صور البيان القرآنى التى يطيل الزمخشرى وقفته الجمالية المستقصية عندها ، ويقرر الزمخشرى المعانى النفسية الكامنة وراء التكرار فى القرآن »(٣) .

ولقد وقف الزمخشرى عند كثير من صوره ليفسر أثره البلاغى فى مواقفه المختلفة ، فقد أشار إلى التكرار فى مقام الوعظ والنصيحة وفى مقام دفع الشبهة وفى القصص وفى مقام الموعيد وفى مقام الكف والنهى وفى

---

(١) المرجع السابق : ص ٢

(٢) المرجع السابق : ١٣٩

(٣) د . مصطفى الصاوى الجوينى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه : ٢٢٧ — دار المعارف

ذكر مظاهر القـــدرة . . وكانت المعانى التى لحظها الزمخشرى فى هـذه الطريقه مستمدة من صلتها المباشرة بنفس السامع أو المتكلم »(١) .

أما « الرازى » فقد ردد بالحرف ما ذكره « القاضى عبد الجبار » من أن التكرار لا يعد عيبا إذا تكررت مواطنه وتعددت مواضعه . كما حكى كلامه عن أسرار بلاغة التكرار فى السور التى كثر فيها التكرار كسور الرحمن والمرسلات والكافرين وانتهى إلى ما انتهى إليه « القاضى عبد الجبار » من أن بلاغة هذه السور فيما وردت عليه ، ولو لم يكن ذلك التكرار فى هذه المواطن لنقصت درجة البلاغة واهتزت رتبة البيان والبراعة(٢) .

وأما « ضياء الدين بن الأثير » فقد وقف عند التكرار وقفة طويلة ، وعلى الرغم من أنه لم يتناول فى حديثه عن بلاغة التكرار هذا الجانب المختص بالقصص القرآنى إلا أنه قد عرض لكثير من آيات وسور القرآن الكريم مما يتوهم أن فيها تكرارا لا فائدة فيه ، ووضح ابن الأثير أنه ما من حرف فى الكتاب الكريم إلا وقد جاء لفائدة ، وما من مكرر إلا وفيه بلاغة فقال « وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره ، فإن رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه ، لتنكشف لك الفائدة منه »(٣) .

ويؤكد ابن الأثير أن هذه الآيات التى تكررت كثيرا وبان

---

(١) د . محمد أبو موسى : البحث البلاغى فى تفسير الكشاف وأثره فى الدراسات البلاغية

(٢) الرازى : نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز : ١٦٧ ، ١٦٨

(٣) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر : ٢ /٨ تحقيق الدكتورين : الحوفى وطبانة — دار نهضة مصر

تكرارها ووضح فى بعض السور فإنما كان هذا التكرار لبواعث وأغراض كما فى سورة الشعراء وما فيها من تكرار قوله : « فاتقوا الله وأطيعون » فلم تذكر هذه الآية مرة بدون ما فائدة ، وتظهر تلك الفوائد وهذه البواعث والأسرار بالتأمل وطول النظر ، ومن الآيات التى اتبعت بالآية السابقة من سورة الشعراء قوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون »(١) .

يقول ضياء الدين بن الأثير : « فكرر قوله : « فاتقوا الله وأطيعون » ليؤكده عندهم ، ويقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة ، فجعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم ، وجعل علة الثانى حسم طمعه فيهم، وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه »(٢) .

ولم يكتف [ابن الأثير] ببيان السر البلاغى والأثر الجمالى فى تلك الآيات المكررة ، بل عرض لبيان السر البلاغى أيضا فيما يتوهم من تكرار بعض الحروف فى القرآن ، وقرر أنه ما من حرف إلا جاء لفائدة واقتضاه الحال واستلزمه المقام ، وجره ذلك إلى تخطئة النحويين فيما ذهبوا إليه من القول بزيادة بعض الحروف فى القرآن ، ملتمسا لهم العذر بضعفهم فى علوم الفصاحة والبلاغة . ففى قول الله تعالى فى سورة القصص : « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما

---

(١) سورة الشعراء : ١٠٥ — ١١٠

(٢) المثل والسائر ٣/٨

قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس (١) ، فيوضح «ابن الأثير الباعث النفسي والسر البلاغي لتكرار لفظه ـ «أن» ـ فيقول فقوله تعالى : «فلما أن أراد أن يبطش بتكرير « أن » مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنه إبطاء فى بسط يده إليه ، فعبر القرآن عن ذلك فى قوله تعالى: « فلما أن أراد أن يبطش» وخطأ ابن الأثير النحاة فيما رأوه من زيادة «أن» اعتمادا على ما اتفقوا عليه من أن «أن» الواردة بعد «لما» وقبل الفعل زائدة، وقرر أنها لو كانت زائدة لكان ذلك قد حافى كلام الله تعالى ، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لاحاجة إليها ، والمعنى لايتم بدونها، وحينئذ لايكون كلامه معجزا ، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذى لاحاجة إليه . وإن التطويل عيب فى الكلام فكيف يكون ماعيب فى الكلام من باب الإعجاز ؟ (٢)

وهكذا يفسر ابن الأثير الأثر النفسي والباعث الجمالي لمجيء « أن » بعد « لما » فى قوله تعالى : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه (٣) » فيقول : « فإنه إذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه فى الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المـــدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بأن بعد « لما» وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية :فلما جاء البشير ألقاه على وجهه » (٤) .

---

(١) سورة القصص : ١٨ ، ١٩

(٢) المثل السائر : ٣/١٣ ، ١٤

(٣) سورة يوسف: ٩٦

(٤) المثل السائر ٣: ١٣، ١٤

ويمضى (يحيى بن حمزة العلوى) فى نفس الطريق الذى سار فيه (ضياء الدين بن الأثير) فيبين أن التكرار فى القرآن من محاسنه وليس من معايبه كما يزعم المفترون وأنه كان لبواعث بلاغية وأن « كتاب الله تعالى لم يبلغ حد الإعجاز فى البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكتب ولوكان فيه ماهو خال عن الفائدة بالتكرار لم يكن بالغاء هذه الدرجة ولا كان مختصا بهذه المزية ، وأيضا فإن سائر الكلمات التى هى دونه فى الرتبة قد يوجد فيها التكرير مع شتمالها على الفائدة فكيف هو » (١)

ويقف «السيوطى» طويلا عند بيان الأسرار البلاغية والبواعث النفسية للتكرار فى آيات القرآن كما يطيل النظر فى قصص القرآن وماذكر منها فى أكثر من موضع ، وينقل من كتاب : « المقتنص فى فوائد تكرير القصص » الذى ألفه « البدر بن جماعة » أسرار ذلك التكرار » : بأن فى كل موضع زيادة شيء لم يذكر فى الذى قبله ، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتته وهذه عادة البلغاء ومنها أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون ما نزل بعد صدور من بعدهم ، فلو لا تكرار القصص لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى آخرين ، وكذا سائر القصص ، فأراد الله اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد لآخرين — ومنها : أن فى إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة — ومنها : أن الدواعى لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام — ومنها : أنه تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله ، ثم أوضح الأمر فى عجزهم بأن كرر ذكر القصة فى مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا — ومنها : أنه لما تحداهم قال : « فأتوا بسورة من مثله » ، فلو ذكرت القصة فى موضع واحد ، واكتفى

(١) يحيى العلوى : الطراز : ٢/١٧٧ ط المقتطف : ١٩١٤

بها لقال العربي : ائتونا أنتم بسورة من مثله فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعا لحجتهم من كل وجه — ومنها : أن القصة الواحدة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان ،وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج الأمر الواحد في صورة متباينة في النظم ، وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت عليه من حب التنقل بين الأشياء المتجددة ، واستلذا ذهابه، وإظهار خاصة القرآن ، حيث لم يحصل مع ذلك التكرير فيه هجنه في اللفظ ، ولا ملل عند سماعه فباين بذلك كلام المخلوقين ، (١) .

ويناقش (أحمد بن فاوس) البلاغة في الآيات التي ذكرت في أكثر من موطن من القرآن الكريم ، والقصص التي أعيد ذكرها في أكثر من موضع،ويرى أن ذلك من كمال التحدي وتمام الإعجاز فيقول:، فأما تكرر الأنباء والقصص في كتاب الله جل ثناؤه ، فقد قيلت فيه وجوه ، وأصح مايقال فيه : أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله آية لصحة نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاما أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء وبأي عبارة عبر ، فهذا أول ماقيل في هذا الباب(٢) .

فني كل ماتقدم رأينا البلاغيين يتفقون على بلاغة ماجاء في القرآن الكريم من آياته وقصصه مكررا في أكثر من موطن ومرددا في أكثر من موضع ، وأنه مامن حرف تكرر ذكره إلا كان ذلك التكرار لفائدة .

---

(١) السيوطي : معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١ : من ص : ٣٤١ — ٣٤٨ تحقيق / علي محمد البجاوي . دار الفكر العربي .

(٢) أحمد بن فارس : الصاحبي في فقه اللغه : ١٧٧ . القاهرة : ١٩١٠

وإذا كان كلامهم على بلاغة التكرار قد ورد أحيانا شاملا التكرار فى الآيات والقصص ، وأحيانا أخرى كان يقتصر بعضهم على مناقشة سرروعة التكرار فى الآيات تاركا مناقشه ذلك فى القصص الذى حدث فيه ذلك التكرار — فإن المعاصرين قد خصوا هذا التكرار فى قصص القرآن بمناقشات واسعة ، وأشبعوا القول فى أسرار هذا التكرار على امتداد القصص القرآنى جميعه ، متأثرين فى ذلك بالدراسات الحديثة فى علوم النفس والاجتماع وعلى ضوء ما انتهت إليه الدراسات فى مجال القصة حديثا .

وسنرى عند الانتهاء من عرض خلاصة تلك الدراسات أنها تخلص إلى تقرير ما أثبته البلاغيون والنقاد القدامى من قيمة هذا التكرار وأثره ومنزلته فى إحداث الإعجاز للقصص القرآنى .

فالأستاذ [أمين الخولى] عليه رحمة الله يتهم البلاغيين والنقاد بالتقصير فى المنهج الذى التزموه فى تفسير أسرار البلاغة القرآنية ، ويسوق التكرار شاهـــدا على ذلك ، ويرى أنهم لم يتمكنوا على الرغم من جهودهم البعيده ومناقشتهم الطويلة حوله من إبراز الأسرار الجمالية للتكرار فى القرآن الكريم .

واستشهد الأستاذ [أمين الخولى] على قصور المنهج البلاغى القديم ، بظاهرة التكرار فى القرآن الكريم إذ لم يستطع ذلك المنهج على الرغم من كثرة كلامه حول هـــذه الظاهرة أن يحسم القول فى أسرارها وبواعثها فيقول : وهذا التكرار فى القرآن قال فيه القدماء منذ عهد بعيد ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب ، ولعل القائلين جميعا جاءوا هذه المسألة من غير طريقها النفسى الذى هو سبيل الإعجاز الفنى فى القرآن ، فكان كلام كل رجل منهم محتاجا لكلام من بعده ، (١)

---

(١) أمين الخولى : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص : ٢١١ ط أولى دار المعرفة ١٩٦١ م .

ولعنا نتمكن بسهولة من إدراك ما فى دعوى المرحوم الأستاذ [أمين الخولى] من شطط ، وخاصة بعد أن عرضنا لتفسير البلاغيين والنقاد فى القرآن الكريم ، وأنهم جميعا يتفقون على أنه سبيل لتقرير المعلومات وتثبيتها فى النفوس ، وكان تفسيرهم كله ملاحظا فيه أحوال النفس كما كان تحليلهم للآيات التى تكررت تحليلا نفسيا بلاغيا ، وليس التكرار فقط هو الذى نرى فيه صلة البلاغة بعلم النفس ، بل إن هذه الصلة وثيقة ومتينة فى كل لون من الألوان البلاغية وكل نكتة من نكاتها ، فلا مجال لما ذهب إليه الأستاذ ولا محل لنقده السابق .

أما الأستاذ [محمد أحمد خلف الله] فلقد فسر ظاهرة التكرار فى القصص القرآنى وظاهرة اختلاف التعبير عن القصة الواحدة فى المواطن المختلفة التى ذكرت فيها بما فسره البلاغيون ، إذ رأى أن هذا التكرار وذلك الاختلاف ناشىء عن اختلاف المقامات وتنوع الأغراض . يقول الأستاذ: [خلف الله] « لماذا كرر القرآن قصص آدم ونوح وهود ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل والأنبياء ؟ إن الوقوف على تاريخ كل واحد من هؤلاء قد يكفى فيه إيراد القصة وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة والمواد التاريخية متشابهة والمواقف متفقة أمر يحتاج إلى تعليل وإلى بيان وإيضاح . . . . ولماذا اختلف إيراد القصة الواحدة فى موطن عنه فى آخر ؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه فى سورة طه عنه فى غيره من السور مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة ؟ لماذا قال القرآن فى سورة طه « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا . . . . الخ » (١)

ولماذا قال فى سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف : « إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس

(١) سورة طه : ٩ ومابعدها .

لعلكم تصطلون .... الخ »(١) .

ولماذا قال فى سورة القصص غير هذين ؟ إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار ، وحديث الرب العلى مع موسى النبى فى موطن غيره فى آخر »(٢) .

يرى الأستاذ [خلف الله] أن هذا الاختلاف وذلك التنوع والتكرار كما يقول البلاغيون ناشىء عن تنوع المقامات . وليس ذلك من قبيل المتشابه كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين «ولو أن العقل الإسلامى أقام فهمه للقصص القرآنى على أساس فنى أدنى لما وقف هذه الوقفة . ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذى عده من التكرار ليس من التكرار فى شىء ، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص ، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وإشارات تختلف فى موطن عنها فى آخر ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية ، مقصد القرآن من قصة موسى فى سورة طه غيره من قصة موسى فى سورة النمل . وقصة موسى فى سورة طه قصة مستقلة وقصته فى سورة النمل قصة مستقلة ، ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى ، وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه »(٣) .

وعلى هذا فإن الأستاذ [خلف الله] يرى ما رآه البلاغيون السابقون من أن التكرار فى هذه القصص كان سبيلا من سبل الإعجاز ومجالا من مجالات التحدى وأنه من خصوصيات البلاغة القرآنية فيقول :

« والمنهج السديد هو أن ننظر إلى هذه الأقاصيص على أنها أقاصيص

(١) سورة النمل : ٧ وما بعدها

(٢) محمد أحمد خلف الله : الفن القصصى فى القرآن الكريم ٣٢،٣٣ ط ثانية : ١٩٥٧

(٣) المرجع السابق : ٣٤

مستقلة ، وليست من قبيل الأجزاء ، فهى عرض أدبى للحادث تختلف ألوانه باختلاف أغراضه .... وتلك ظاهرة رقى فنى كبرى قدم القرآن مثلا منها صح معها التحدى لهذا التكرار الذى لم يفهم على وجهه ، حتى لقد كان مما يعاب على القرآن و يلتمس له الوجه ويطلب عنه الرد . فيختلف فى ذلك القدماء والمحدثون ، ولا يكادون يقفون على الوجه الفنى له ، بل يلتمسون لذلك أشياء وراء الصوغ البلاغى والنظم الأدبى والنسج الفنى ، ولو جعلوا هذا وجها فى تلك القصص وتنوعها لكان من الصواب فى فهم القرآن الكريم وإعجازه »(١) .

فتكرار القصص القرآنى وتنوع التعبير عن القصة الواحد صنيع بلاغى «والصنيع البلاغى فى القصص القرآنى قد يكون فى أسلوب القرآن وطريقته فى رسم الأشخاص ، وفى تصوير الأحداث وفى إقامة الحوار ، كما قد يكون فى توزيع العناصر القصصية وفى تحريكها الحركات التى تجعل كل عنصر قادراً كل القدرة على القيام بالدور الذى قدر له أن يلعبه فى القصة بحيث تنتهى كل هذه الأشياء إلى المقاصد المطلوبة والأغراض المرجوة .. . وقد تكون العملية الفنيه فى أخذ عنصر واحد أو عناصر بأعيانها ورسمها من جوانب عديدة ، وتصويرها من مواقع مختلفة لتنتج من ذلك رسوم عديدة للشخصية الواحدة ، وصور كثيرة للحدث الواحد ، بحيث يكون لكل رسم طابعه الخاص ، ولكل صورة شخصيتها المميزة ، ثم فى بناء الأقاصيص المختلفة على هذه الرسوم ، وهذه الصور ، إن هذا الصنيع الأدبى هو الذى نراه فيما سماه المفسرون بتكرار القصص وما هو من التكرار فى شىء ، وإنه الصنيع الذى يدل على هذه القدرة القادرة والقوة الباهرة التى لا يستطيعها إلا خالق مبدع ، والذى يعجز عن القيام به من لا يملك ناصية الفن ومن

(١) المرجع السابق : ١٩٨ ، ١٩٩

لا تجرى الأمور على يديه فى سهولة ويسر، ولعله من هنا تحدى القرآن العرب وتحداهم بالسور المفتريات، ذلك لأنه بنى أقاصيصه على ما يعرفون من عناصر، وبنى أكثر من قصة على عنصر واحد، هو شخصية النبى أو الرسول، وجعل لكل قصة غرضها الخاص ومقصدها الذى تصل حتما بالقارىء إليه، وكل ذلك من الأمور التى لايستطيعها إلا من يقول للشىء كن فيكون »(١) .

كذلك يرى صاحب [التصوير الفنى فى القرآن] أن هذا التكرار فى القصص القرآنى ناشىء عن اختلاف الغرض وتنوع المقام، وأنه لم يكن تكرارا للقصة كلها وإنما لأجزاء منها، وأن خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى جعلها تسلك سبلا متعددة ومنها التكرار الذى يحسبه الحاقدون هجنة وعيبا وهو بلاغه وبراعة فيقول :

« ولقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة، فى معظم الحالات مكررة فى مواضع شتى . ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالبا، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها، أما جسم القضية كله، فلا يكرر إلا نادرا ولمناسبات خاصة فى السياق . وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماما، فى اختيار الحلقة التى تعرض هنا أو تعرض هناك، وفى طريقة عرضها كذلك، ويجب أن نذكر دائما أن القرآن كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم، وهذا يتوافر دائما، ولايخل بالسمة الفنية إطلاقا .... ونضرب مثالا على هذا النظام، قصة موسى،

---

(١) المرجع السابق : ٢٣٢، ٢٣٣

إذ أنها أشد القصص فى القرآن تكرارا ، فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار ، وردت هذه القصة فى حوالى الثلاثين موضعا ...

وهذه القصة أشد القصص تكرارا فى القرآن ، وقد رأينا .. نوع التكرار وأنه فيما عدا ستة مواضع إشارات وعظية إلى القصة اقتضاها السياق ، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريبا وإذا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد فى تكرارها ، وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضوئها ندرك أن ليس فى القصص القرآنى ذلك التكرار المطلق الذى يخيل لبعض من يقرأون القرآن بلا تدقيق ولا إمعان »(١) .

والدكتور [محمد كامل حسين] يعد التكرار من خصائص البلاغة القرآنية وأنه من أهم عناصر الجمال وهو واضح فى الموسيقى والشعر والبناء والتصوير ، وأن أسلوب القرآن كله يقوم على آيات مفصلات يكثر تكرارها ولا يعلمها إلا غير العربى(٢) .

وشبيه بذلك ما ذكره الأستاذ [عبد الكريم الخطيب] فقد قرر أن التكرار فى القرآن من إعجازه ، « وهو وجه جديد من وجوه البلاغة ، لم ينطق به قبل القرآن لسان ، فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة ! على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم ، ذلك أن كل كلام يتكرر يثقل ويسمج ، ويسقط ، أما التكرار الذى وقع فى القرآن فإنه كان فى المواضع التى جاء فيها نغماً جديداً من أنغام الحسن الرائع ، أضيف إلى تلك الأنغام السارية فى القرآن كله ... فهذه هى سبيل التكرار فى القرآن ، لا يجيء متكلفا ، ولا يصدر عن عجز عن تناول اللفظ الذى يصلح المعنى عليه ، وإنما يجيء حين يجيء ليخدم المعنى ، ولا يخل بتساوق النظم ، بل يمد النغم

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن : ١٢٨ — ١٣٣ ط ثالثة .
(٢) د . محمد كامل حسين : متنوعات : ص : ١٩ ، ٢٠ ط ثانية .

الموسيقى بلون جديد ، يزداد به النغم روعة وقوة »(١) .

وكذلك يؤكد الاستاذ [حنفى أحمد] أن « هذا التكرار الوارد فى الكتاب العزيز ليس من قبيل التكرار المقصود به مجرد الإطناب أو التوسع فى الكلام ، لأن هذا تأباه بلاغته المعهودة وفصاحته المعترف بها وبناؤه من الكلم الجوامع ، وإنما هو تكرار فى جزئيات الآيات دون كلياتها و إذ لا تجد مطلقا فى آيتين كاملتين تطابقا فى النص والمعنى ، فهو إذن تكرار بليغ يأتى دائما بشىء جديد ، وإن التكرار فى ذاته قد يكون أسلوبا من الأساليب البليغة فى كلام العرب حينما يكون مظهرا من مظاهر الإطناب البليغ »(٢) .

والمرحوم الدكتور [أحمد بدوى] قد أحصى الآيات التى تكرر ذكرها فى القرآن والسور التى وقع فيها ذلك التكرار ، وبين سر التكرار فيها ، كما ذكر على سبيل العموم أثر التكرار وقيمته فى تقرير المعانى وتثبيتها فى النفوس(٣).

كذلك يرى الأستاذ الدكتور [عبدالغنى الراجحى] أن التكرار فى القرآن من أسرار بلاغته وفصاحته وأنه وسيلة إلى إيقاظ الهمم واستثارة المشاعر وتحريك الخواطر وأنه تثنية الكلام وتكراره لمعنى واحد مع التشابه فى الفصاحة والبلاغة والإعجاز وإصابة المحز فى كل هو سر من أسرار القرآن وضرب من ضروب القدرة الكلامية والفروسية القولية لايعرف إلا لكتاب الله تعالى حيث تتبدل الأغراض وتفحل المعانى وتبلغ

---

(١) عبد الكريم الخطيب : إعجاز القرآن : ١ : ٣٥٦—٣٨٨ ط أولى

(٢) حنفى أحمد : التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن :ص: ٢٦ دار المعارف بمصر

(٣) د . أحمد بدوى : من بلاغة القرآن : ١٤٣ — ١٥٥ ط ثالثة

المقاصد التى سيق لها الكلام قمة الرفعة والسمو الأمر الذى لمثله يستطاب التكرار ويستملح الترديد فى العبارات، ويتحايل بأفانين القول ووجوهه على جذب القلوب وامتلاك الأسماع واختلاب البصائر، ومع ما فى هذا التكرار من التلوين من تنشيط السامع وتحريك انتباهه، والتنقل به من فن إلى فن فقد كانت هذه الظاهرة فى كتاب الله على المعاندين الكافرين نداء بالويل والثبور، والعجز عن المعارضة مع الإرخاء فى العنان والمساهلة والتبسيط فى جهات المعارضة والتوسيع فى ميادينها، فقد دعاهم القرآن بنفسه إلى معارضته بثلاث آيات من مثله بأى لون يختارونه وأى واد يبتغون المجاراة فيه والمباراة فأحجموا جميعهم ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينبس ببنت شفة يعارض بها كتاب الله فى مطوله أو مختصره، فى إيجازه أو إطنابه، فى أى وجه من وجوه تعبيراته، فى أى لون من ألوان أساليبه(١) .

فالجميع فى القديم والحديث يتفقون على بلاغة التكرار فى آيات القرآن وقصصه، والكل يؤكد أنه وجه بارز من وجوه بلاغته وأن القصة فى القرآن من وجوه إعجازه بما تضمنته من أخبار القرون السالفة والأمم الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، تلك الأخبار التى سيقت فى عبارات لها من البلاغة الفائقة ما أهل العرب الأول أرباب البيان والفصاحة خروا لبيانها عاجزين .

---

(١) د. عبد الغنى الراجحى : متشابه النظم فى قصص القرآن الكريم ص : ٤، ٥ — رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين تحت رقم : ٧٦ تفسير وعلوم قرآن .

سورة يوسف

سبب نزولها — مناسبتها لما قبلها

سورة يوسف مكية كلها على المعتمد، وروى عن بن عباس وقتادة أنهما قالا إلا ثلاث آيات من أولها، واستثنى بعضهم رابعة، وهى قوله سبحانه: « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ».

وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية بالإجماع.

وسبب نزولها: ما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: أنه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا فقالوا: يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت سورة يوسف، وقيل: كان نزولها تسلية لرسول الله ﷺ عما يلاقيه من قومه من إهانة وإعراض بما فعلت إخوة يوسف عليه السلام به — وقيل: إن اليهود سألوه ﷺ أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما إنتهى إليه فنزلت — وقيل: إن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذى أحل بنى إسرائيل بمصر فسألوه فنزلت.

ويبعد القولين الأخيرين ماروى عن بن عباس رضى الله عنه أن حبرا من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوجده يقرأ سورة يوسف فقال: يا محمد من علمكها؟ قال: الله علمنيها فعجب الحبر لما سمع منه فرجع إلى اليهود فقال لهم: والله إن محمداً ليقرأ القران كما أنزل فى التوراة فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه ووجدوا خاتم النبوة بين كتفيه فجعلوا يستمعون إلى قراءته ﷺ من سورة يوسف، فتعجبوا وأسلموا عند ذلك(١).

---

(١) الألوسى: روح المعانى ١١/١٧٠ — دار التراث

مناسبتها لسورة هود :

ووجه مناسبتها لما قبلها وهى : سورة هود — أن سورة هود عرضت لما قاساه بعض الأنبياء عليهم السلام من أجانب عنهم — فجاءت سورة يوسف لتبين أن المقاساه والمتاعب قد تجىء من الأقارب أيضاً — كذلك من أوجه التناسب بين السورتين : أن سوره هود قد جاء فيها : « فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » وقوله سبحانه : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » وجاء فى سوره يوسف حال يعقوب مع أولاده وما صارت إليه عاقبه أمرهم مما هو أقوى شاهد على الرحمة — وقد جاء عن بن عباس وجابر بن زيد رضى الله عنهما أن: يونس نزلت ثم هود، ثم يوسف(١).

ومن أوجه التناسب والارتباط بين السورتين أيضاً أن سوره هود قد جاء فى آخرها قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(٢) .

وكان فى تلك الأنباء المقصوصة مالاقى الأنبياء عليهم السلام من قومهم فأتبع ذلك بقصة يوسف ومالاقاه من إخوته وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة ليحصل لرسول الله ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب .

وإذا كانت قصص القرآن قد جاءت موزعة على أكثر من سوره فإن قصه يوسف جاءت مطولة مستوفاه فى سوره واحده(٣) .

---

(١) المرجع السابق

(٢) سوره هود : ١٢٠

(٣) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٧٦ ط ثانية ١٣٩٨ ﻫ — ١٩٧٨ م دار الفكر

وقد علل لذلك بأمور منها :

١ — أن الأنسب معها عدم التكرار لما كان فيها من افتتان زوجة العزيز والنسوة اللاتى أقت بهن بأبدع الناس جمالا ويحسن مع ذلك الإغضاء والستر، وقد صحح الحاكم فى مستدركه حديث النهى عن تعليم النساء سورة يوسف.

٢ — أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم والحاجة داعية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن عن تكذيب الكفار للرسول ﷺ ، فكلما ساق موقفاً من مواقف التكذيب ساق فى إثره قصة منذره بحلول العذاب لما حل بالمكذبين، وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد منها ذلك ، وبهذا أيضاً يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ، وقصه موسى مع الخضر ، وقصه الذبيح .

وقد اعترض بأن قصة آدم عليه السلام كررت مع أنه ليس المقصود بها إفاده إهلاك من كذبوا رسلهم : وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية مايجعلها أشبه ما تكون بتلك القصص التى كررت لذلك(١) .

وسيدنا يوسف عليه السلام هو : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام — وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ذكراهم :

١ — راوبين	٢ — شمعون	٣ — لاوى
٤ — يهوذا	٥ — يساكر	٦ — زبولون
٧ — يوسف	٨ — بنيامين وهو الأخ الشقيق ليوسف	
٩ — دان	١٠ — نفتالى	١١ — جاد
١٢ — أشير		

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٧٦

وقد ولد له هؤلاء الأولاد وهو فى فدان آدام يرعى غنم خاله «لابان» نظير تزوجه من ابنتيه : «ليئة» و«راحيل» وعاد بهما بعد انقضاء الأجل وبعد أن أخذ من الغنم نتاج سنة الى أرض كنعان الا بنيامين فقد ولد فى كنعان .

وقد ورد ذكر اسم يوسف فى ٢٦ آية من الكتاب الكريم : ٢٤ آية فى سوره يوسف، وفى الآية : ٨٤ من سوره الأنعام : «ووهبنا له اسحاق ويعقوب ... الآية» ، والآية : ٣٤ من سوره غافر وهى : «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... الآية»(١) .

---

(١) عبد الوهاب النجار ـ قصص الأنبياء ص : ١٥٤ ، ١٥٥ ط أولى مكتبة دار التراث .

١ – قرآن عربي

بسم الله الرحمن الرحيم

« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون » الآيتان : ١ ، ٢

المعنى : يتلى عليكم فى هذه السورة آيات يظهر فيها غلبة الحق وعاقبة الصبر والاستعانة بالله فى النصر والقوة . وفى هذا عظة وعبرة لمن شاء الله له أن يتعظ ، وهذه الآيات بعض من آيات القرآن العظيم الذى تركبت جمله وتكونت عباراته من نفس الحروف التى ركب منها كلام العرب ، وعين الكلمات التى تألفت منها عباراتهم ومع ذلك وقفوا أمامه عاجزين ولنظمه مبهورين لم يستطيعوا الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله .

التحليل اللغوى والبلاغى :

الر : اختلف العلماء والمفسرون فى المراد من تلك الأحرف التى وردت فى مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن .

فقيل : إنها من أسرار القرآن التى استأثر الله بعلمها ، ويروى عن الصديق رضى الله عنه : فى كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور .

وقيل : إنها أسماء الله تعالى .

وقيل : كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله أو لصفة من صفاته .

وقيل : هى أقسام (أيمان) من الله تعالى بهذه الحروف لشرفها من من حيث إنها أصول اللغات ومبادىء كتبه المنزلة ، ومبانى أسمائه الكريمة .

وقيل : إنها تشير إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر ، وقيل غير ذلك . والذى يرجحه أكثر العلماء أنها أسماء للسور المصدرة بها وقد قال بذلك الخليل وسيبويه .

وذهب المحققون من العلماء إلى أن ورودها هكذا على سبيل التعديد زيادة فى التحدى ، وكأن الله تعالى يقول للعرب : إن القرآن الذى تعجزون عن الإتيان بمثله مؤلف من الأحرف التى يتألف منها كلامكم .

أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة وأنموذجاً لما فى الباقى من فنون الإعجاز .

وهذه الفواتح إن قدر كونها مسرودة على سبيل التعديد لا إعراب لها ، وإن جعلت اسما للسورة أو القرآن فمحلها الرفع إما على أنها خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : « هذا الر » أى : مسمى به ، وإما على أنها مبتدأ والخبر محذوف أى : المسمى به ، والإعراب الأول أرجح(١) .

« تلك . آيات الكتاب المبين » يجوز أن يراد بآيات الكتاب كل آيات القرآن ، ويجوز أن يراد بها آيات سورة يوسف وهو الأرجح من إطلاق الكل وإرادة الجزء . وقد أشير إليها مع أنها لم تذكر بعد لتنزيلها لكونها مترقبة منزلة المتقدم ، أو لجعل حضورها فى الذهن بمنزلة الوجود الخارجى ، والإشارة بالبعيد للعظمة وبعد المرتبة .

والمبين أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى إعجازه ، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا تشتبه عليهم حقائقه ، ولا تلتبس عليهم دقائقه من الفعل : أبان بمعنى بان أى ظهر فيكون لازما . وإما أن يكون بمعنى « بين » أى : أظهر فيكون متعديا ، والمفعول على ذلك مقدر لتذهب

---

(١) أبو السعود ١/٢٤ ، ٢٥ بدون بيانات .

نفس السامع فيه كل مذهب — أى المظهر ما فيه من هدى ورشد — أوما سألت عنه اليهود ، أو ما أمرت أن تسأل عنه من السبب الذى أحل بنى إسرائيل بمصر ، أو الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين ، وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص(١) .

و « الكتاب » من أسماء القرآن ، ومعناه فى اللغة : الجمع وقد سمى القرآن بالكتاب لجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه(٢) .

« إنا أنزلناه قرءانا عربيا لكم تعقلون » .

اختلف العلماء فى أصل كلمة « قرآن » فقال جماعة إنه غير مهموز ولم يؤخذ من قرأت ، ثم اختلف هؤلاء فقال بعضهم ومنهم الإمام الشافعى : إنه اسم لكتاب الله كالتوراة والإنجيل فليس مشتقا

وقال الأشعرى : هو مشتق من قرنت الشىء بالشىء ، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى بذلك لاقتران السور والآيات والحروف فيه .

وقال الفراء : هو مشتق من القرائن ، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا ، وهى قرائن .

وقال الزجاج : إن القول بعدم همزه سهو . والصحيح أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها .

واختلف القائلون بأنه مهموز ، فقال بعضهم : هو مصدر لقرأت ، كالرجحان والغفران سمى به الكتاب المقروء ، من باب تسمية المفعول بالمصدر .

---

(١) الألوسى ٢/١٧٠

(٢) السيوطى : الإتقان ١ : ١٤٦

وقال آخرون منهم الزجاج : هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء فى الحوض أى جمعته ، وقد سمى القرآن بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض .

وقال الراغب : إنما سمى قرآنا . لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة ، وقيل : لأنه جمع أنواع العلوم كلها .

وقد رجح السيوطى ما ذهب إليه الشافعى وهو ما أميل إليه(١) .

« عربيا » أى منسوب إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم ، وقد أخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى وآخرون عن بن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى .

وقد اختلف العلماء فيما وقع فى القرآن من غير لغة العرب من ألفاظ مثل :

أسباط(٢) — إستبرق(٣) — أسفار(٤) — إصرى(٥) — الجبت(٦) — الرقيم(٧) — سندس(٨) — القسطاس(٩) .

فقال جماعة منهم الشافعى وبن جرير الطبرى والباقلانى بعدم وقوع غير

(١) السيوطى : الإتقان ١ : ١٤٦ تحقيق : محمد أبو الفضل ط أولى .
(٢) القبائل (٣) الديباج الغليظ
(٤) الكتب بالسريانية (٥) عهدى بالنبطية
(٦) الشيطان بالحبشية (٧) اللوح بالروميه
(٨) الديباج الرقيق
(٩) العدل بالرومية . ينظر : الإتقان تحقيق محمد أبو الفضل ٢ : ١٠٥ والتحبير تحقيق د / فتحى فريد ص ٢٠٠

العربي فى القرآن مستدلين بأن وصف القرآن بكونه عربيا ينفى وقوع المعرب فيه .

ووجه ابن جرير الطبري ما ورد عن ابن عباس وغيره فى تفسير ألفاظ فيه أنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية كالألفاظ السابقة بأن ذلك مما اتفق فيه توارد اللغات .

وقال غيره : بل كان للعرب التى نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لأهل سائر الألسنة فى أسفار لهم فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن .

وذهب جماعة إلى وقوع غير العربي فى القرآن ، وأجابوا عن الآية بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرج القرآن عن العربيـــة ، فلا تخرج القصيدة الفارسية عن كونها فارسية بلفظة عربية وقعت فيها ، وقال غير واحد : المراد أنه عربي الأسلوب والنظم .

واختار جلال الدين السيوطى القول بالوقوع معللا لذلك بأن القرآن الكريم حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء ، فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات لتتم إحاطته بكل شىء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب ، ولأنه لما كان ﷺ مرسلا إلى كل أمة ناسب أن يكون فى كتابه المبعوث به من لسان كل قوم شىء » .

وذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى تصديق القولين جميعا بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء ، والمنع عن أهل العربية ، وذلك لأن هذه الأحرف أصولها أعجمية لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت

هذه الأحرف بكلام العرب فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : إنها أعجمية فهو صادق ، وقد مال إلى هذا القول الجواليقى وبن الجوزى وآخرون(١) .

والذى أراه أن القرآن لكونه يخاطب الناس جميعا استعمل من ألفاظ اللغات الأخرى ما لا نظير له فى العربية ، أو ما كان أخف فى استعماله وفى جمال وقعه من نظيره العربى ، وفى كل لغة من الألفاظ ما يعبر عن معنى معين يختص ببيئتها ولا يوجد ذلك المعنى عند أهل اللغات الأخرى ، ولا يقدح فى القرآن وقوع غير العربى فيه على هذا الوجه بل إن ذلك مما يشهد بعلوه وكونه من لدن حكيم عليم يحيط بكل شىء علما .

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٧٣ ، ١٧٤

٢ — قصة حسنة

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبل لمن الغافلين » الآية : ٣

المعنى : نسوق لك فى هذه السورة قصة حسنة من قصص القرآن التى لم تكن تحيط بها علما من قبل .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« نقص » أى نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه، لأن الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا كما يقال : تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية .

« أحسن القصص » أى قصة حسنة من حسن القصص القرآنى بإضافة الصفة للموصوف ، فأفعل التفضيل ليس على بابه وهو بمعنى حسن . وفى التعبير تعريض بما فى قصص أهل الكتاب من الوهم والخلل .

وقد ذكر فى التعليل لأحسنيتها أمور منها :

١ — ما اشتملت عليه من بلاغة فى عباراتها وروعة نظم فى تراكيبها مما جعلها تسمو على ما ورد عنها فى كتب التواريخ ومؤلفات السابقين .

٢ — اشتمالها على عدد من المتضادات مثل : حاسد ومحسود ، ومالك ومملوك ، وشاهد ومشهود ، وعاشق ومعشوق ، وحبس وإطلاق ، وخصب وجدب ، وذنب وعفو ، وفراق ووصال ، وسقم وصحة ، وحل وإرتحال وذل وعزة .

٣ — تأكيدها على أنه لا راد لقضاء الله تعالى وقدره ، وأن أهل

العالم لو اجتمعوا على رد خير قدره الله للإنسان لم يقدروا، وأن الحسدمن أسباب الخذلان والنقص، وأن الصبر مفتاح الفرج، وأن التدبير من العقل وبه يصلح أمر المعاش .

٤ — أن غالب من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة كيوسف وأبيه وإخوته وامرأة العـــزيز، والملك الذى أسلم بيوسف وصاحب الرؤيا الساقى(١) .

٥ — انفرادها عن بقية القصص بما جاء فيها من ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والرجال والنساء وكيدهن ومكرهن مع ما فيها من ذكر التوحيد والفقه والسير والسياسة والعفو عند المقدرة وحسن المعاشرة والحيل وتدبير المعاش والمعاد وحسن العاقبة فى العفة والجهاد والخلاص من المرهوب إلى المرغوب وتعبير الرؤيا والعجائب التى تصلح للدين والدنيا(٢)

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٧٥
(٢) أبوحيان : البحر المحيط ٥ : ٢٧٨

٣ — رؤيا ونصيحة

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم » ٤—٦

المعنى : لما قص يوسف على أبيه يعقوب أنه رأى فى منامه أحدعشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له أحس يعقوب بفراسة إيمانه أن ابنه سيكون له شأن ، وأنه سيكون امتدادا لأجداده فى النبوة والملك ومن ثم نصحه يعقوب بكتمان تلك الرؤيا عن إخوته حتى لا يحاولوا بإغراء الشيطان إيقاع المكروه به .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ياأبت » أصلها : يا أبى فالتاء عوض عن ياء المتكلم . وفى هذا التعبير إظهار لطواعية الابن واجتلابه شفقة أبيه ، ولذلك رد عليه أبوه بقوله : يا بنى بتصغير التحبيب والتقريب والشفقة ، أو لصغر سنه (١).

« إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين »

« رأيت » من الرؤيا وهى ما يراه النائم مما يسر ، وليست من الرؤية وهى ما يراه الإنسان يقظة ، وتسمى الأولى : حلمية ، والثانية : علمية — فإن كانت الرؤيا بما يكره سميت حلماً ، والرؤيا من الله والحلم من الشيطان

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٨٠

مصداقا لقوله ﷺ : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هى من الله تعالى فليحمد الله تعالى وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره »(١)

« أحد عشر كوكباً والشمس والقمر » المراد بالكواكب : إخوته، وبالشمس أبوه وبالقمر أمه وقيل : خالته لأن أمه « راحيل » كانت قد ماتت .

وتخصيص الشمس والقمر بالذكر وعدم إدراجهما فى جميع الكواكب إشعاراً بمزيتهما على غيرهما من الكواكب وذلك من ذكر الخاص بعد العام إعلاماً بفضل الخاص حتى لكأنه جنس برأسه ، وذلك كقوله تعالى: « من كان عدو لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائل فإن الله عــدو للكافرين »(٢) فقد أفرد جبريل وميكال بالذكر مع كونهما داخلين فى عموم الملائكة اختصاصا لهما بالفضل والمزية .

أما تأخير الشمس والقمر عن الكواكب فلكون سجودهما أبلغ وأعلى كعبا فهو كقولك : لايعرفه فلان ولا أهل بلده (٣) .

ويرى « أبو حيان » أن تأخيرهما إنما هو للترقى من الأدنى إلى الأعلى، وإن كان الترقى لم يقع فى « الشمس والقمر » جريا على ما استقر فى القرآن من أنهما إذا اجتمعا قدمت عليه قال تعالى : « الشمس والقمر بحسبان(٤) وكقوله سبحانه : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً »(٥) وقدمت

---

(١) المرجع السابق (٢) سورة البقرة : ٩٨
(٣) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٧٩
(٤) سورة الرحمن : ٥ (٥) سورة يونس : ٥

الشمس على القمر لسطوع نورها، واستمداده النور منها، وكبر حجمها وعلو مكانها(١).

« رأيتهم لى ساجدين » يرى الزمخشرى، أنه لا تكرار للفعل «رأيت» لأن الكلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كأن « يعقوب » عليه السلام قال له عند قوله : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا » كيف رأيتها ؟ سائلا عن حال رؤيتها قائلا : « رأيتهم لى ساجدين» وذكر « أحمد بن المنير أن الفعل تكرر لطول الفصل بين الفعل « رأيت » والحال ساجدين »(٢) وقد جمعهم جمع من يعقل « رأيتهم » لحصول السجود له وهو صفة من يعقل، وهذا سائغ فى كلام العرب، وهو أن يعطى الشىء حكم الشىء للاشتراك فى وصف ما وإن كان ذلك الوصف أصله ان يخص أحدهما — وتقديم الجار والمجرور « لى » لإظهار العناية والاهتمام مع مراعاة الفواصل، والسجود سجود كرامة كما اسجدت الملائكة لآدم عليه السلام، وقيل : كان السجود فى ذلك الوقت تحية بعضهم لبعض — وفى الكلام على ذلك استعارة مكنية بتشبيه المذكورات بقوم عقلاء ساجدين ، والضمير والسجود قرينه (٣) .

وقد كان عمره عليه السلام عند الرؤيا اثنى عشرة سنة وقيل : سبع عشرة سنة :

« قال يابنى لاتقصص .... عدو مبين » استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماذا قال الأب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة من ابنه فقيل قال .... ويسمى ذلك : شبه كمال الاتصال وهو من أسباب الفصل بين الجمل .

(١) أبوحيان : ٥ : ٢٨٠
(٢) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٠٠ ، ٣٠١
(٣) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٨٩

والظاهر أن اخوته كانوا يعلمون التأويل وإلا لم ينهه أبوه عليه السلام عن ذكر الرؤيا لهم خوف الكيد(١) .

وفى نصيحة يعقوب ليوسف عليهما السلام بنهيه عن ذكر الرؤيا لهم مخافة كيدهم دلالة على تحذير المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، والتنبيه على بعض مالا يليق ولا يكون ذلك داخلا فى باب الغيبة(٢) .

واسناد الكيد الى جميع الإخوة وليس من بينهم « بنيامين » شقيقه على سبيل التغليب .

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك . . . ان ربك عليم حكيم » أى كما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا العظيمة يجتبيك لأمور عظام ، والاجتباء : الاصطفاء من : جبيت الشىء اذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء فى الحوض — جمعته(٣) .

وذكر بعضهم أن اجتباء الله تعالى للعبد تخصيصه اياه بفيض إلهى يتحصل منه أنواع من المكرمات بلا سعى من العبد ، وذلك مختص بالأنبياء عليهم السلام ومن يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين(٤) .

« ويعلمك » كلام مبتدأ غير داخل فى حكم التشبيه كأنه قيل : وهو يعلمك ويتم نعمته عليك — وذكر بعض المحققين وهو الأصوب : لامانع من جعله داخلا تحت التشبيه ، ويكون المعنى : كما أكرمك بهذه المبشرات

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٨٦
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٨٠ ، ٢٨١
(٣) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٠٣
(٤) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٨٦

الدالة على سجود اخوتك لك ورفعة شأنك عليهم يكرمك بالنبوة والعلم الذى تعرف به أمثال ما رأيت واتمام نعمته عليك(١) .

« من تأويل الأحاديث » أى تأويل الرؤى ، لأن الرؤى اما حديث نفس أو ملك أو شيطان ، وتأويلها : عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أصح الناس عبارة للرؤيا — ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معانى كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها — وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال : قال الله وقال الرسول كذا .

« ويتم نعمته عليك » يراد باتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء فى الدنيا وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة .

« وعلى آل يعقوب » أى أهله وهم نسله وغيرهم ، وأصل آل : أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا مع من له خطر يقال : آل : النبى وآل الملك ولا يقال : آل الخادم ولا آل البواب ولكن أهل .

« كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق » إبراهيم وإسحاق بدل من أبويك ، والأول أب للجد والثانى جد وقد سماهما أبوين لأنهما فى عمود النسب وفى حكم الأب بالأصالة ، ولذا يقولون : فلان بن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدة فى عمود النسب(٢) :

« إن ربك عليم حكيم » أى يعلم من يحق له الاجتباء ، ولا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

---

(١) المرجع السابق
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٨١

٤ — يوسف عليه السلام فى الجب

« لقد كان فى يوسف وإخوته ءايت للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صلحين . قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإناله لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإناله لحفظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يأبانا إناذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو لنا صدقين . وجاءو على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

الآيات من : ٧ — ١٨

المعـــنى :

فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع إخوته من الشواهد والعبر الدالة على قدرة الله تعالى ما يدهش المتاملين — وفى مقدمة تلك الشواهد والعبر : محاولتهم التخلص منه بعد أن أكل الحسد نفوسهم وملأ الغيظ قلوبهم لزيادة حب أبيهم له — وبعد أن انتهوا إلى خطتهم للتخلص منه بإلقائه فى البئر — أخذوا يؤكدون لأبيهم إخلاصهم ونصحهم له لتشككه فى نواياهم وتخوفه من غدرهم بأخيهم حتى استطاعوا أن يحصلوا على موافقته بخروج يوسف معهم إلى الصحراء للتسابق والتدرب على فنون القتال ، وبعد أن نفذوا مؤامرتهم به بإلقائه فى الجب لطخوا قميصه بدم ظبى وعادوا به لأبيه متباكين

يزعمون أن الذئب أكله ، حينئذ تأكد ليعقوب عليه السلام غدرهم به وسأل الله الصبر والعون على ذلك البلاء الشديد .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ءايات » أى عبر وعظات دالة على قدرة الله تعالى ، أو دالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ الذى أخبر من سأله عنها دون أن يعرفها من أحد أو يقرأها فى كتاب ، أو عبر وعظات لكل متأمل فيها وذلك ماأرله .

« إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبه إن أبانا لفى ضلال مبين « ليوسف » اللام للابتداء وفائدتها : الإشعار بأن محبة أبيهم ليوسف وأخيه « بنيامين » أمر ثابت ومحقق .

« وأخوه » أى « بنيامين » وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالأخوة من جانبى الأم والأب وهى أقوى من الأخوة وحدها ، ولم يذكروه باسمه إشعارا بأن زيادة محبه يعقوب عليه السلام له كانت من أجل شقيقه يوسف .

« أحب إلى أبينا منا » كان « بنيامين » أصغر من يوسف فكان يعقوب عليه السلام يحبهما بسبب صغرهما وموت أمهما وحب الصغير والشفقة عليه أمر مركوز فى طباع البشر ، وزاد حبه ليوسف بعد أن قص عليه الرؤيا فكان يضمه كل ساعه إلى صدره وكأن قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه ، ولا لوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك .

« ونحن عصبة » الواو واو الحال : أى أنه يفضلهما فى المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن عشره رجال فنحن أحق بالمحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما .

« إن أبانا لفى ضلال مبين » أى لذاهب عن طريق الصواب فى ذلك » وفى العبارة مبالغة فى بعده عن الصواب وذلك ناشىء من الاستعارة التصريحية التبعية فى الحرف «فى ضلال» .

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين » .

« أو اطرحوه أرضا » أى أبعدوه إلى أرض منكورة مجهولة بعيدة من العمران وذلك سر تنكيرها وعدم تقييدها بالوصف ، والطرح : الإلقاء والرمى .

« يخل لكم وجه أبيكم » أى يتوجه حبه إليكم ويقتصر اهتمامه عليكم فلا يشتغل عنكم بيوسف — وذكر الوجه لأن الرجل إذا أقبل على الشىء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد بالوجه الذات كقوله تعالى :«ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» . فيكون لذلك من المجاز المرسل لعلاقة الجزئية .

«وتكونوا من بعده » أى من بعد التخلص من يوسف بقتله أو إبعاده «قوما صالحين» أى فى دينكم بالتوبة إلى الله عما جنيتم عليه ، أو بالصلح بينكم وبين أبيكم بالاعتذار إليه . أو صالحين فى دنياكم وذلك باقتصار حب أبيكم عليكم .

« قال قائل » منهم لاتقتلوا يوسف والقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين»

(١) سورة الرحمن : ٢٦
(٢) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٩٢
(٣) سورة يوسف : ٨٠

« قال قائل ، منهم ..» قيل إن القائل بذلك يهوذا وكان أحلمهم وأهونهم شراً وهو القائل :« فلن أبرح الأرض ....» .

ولم يذكر القرآن أحداً منهم باسمه ستراً على المسىء، ولم يخل كل واحد منهم عن الإساءة وإن تفاوتت مراتبها . ولا يقال بأنه لا ينبغى أن يعين واحد منهم باسمه اقتداء بالقرآن فى ذلك لأن مطلوب فى مقام التفسير .

والجملة مسأنفة استئنافا بيانيا كأن سائلا سأل : ماذا كان موقفهم مما عرض عليهم ؟ فقيل : قال قائل منهم (لا تقتلوا) الخ ، والإتيان بيوسف دون ضميره لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظام قتله .

« وألقوه فى غيابت الجب » الجب : البئر قيل : كان ببيت المقدس وقيل : بأرض الأردن ، وقيل : بين مصر ومدين ، وقيل : على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب — والغيابة : أحسن ما قيل فيها مما يناسب قوله بعد ذلك :« يلتقطه بعض السيارة» أنها : شبه طاق فى البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون .

« يلتقطه » أى يأخذه على وجه الصيانه عن الضياع والتلف ، والالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع والتلف .

« بعض السيارة» أى بعض جماعة السير فى الأرض ، جمع سيار وهو الكثير السير فى الأرض .

« إن كنتم فاعلين»أى إن كنتم عازمين مصرين على أن تفعلوا به مايفرق بينه وبين أبيه ، أو إن كنتم فاعلين بمشورتى ورأيى فألقوه . » الخ ، ولم يبت القول لهم بل عرض عليهم ذلك تأليفا لقلوبهم وتوجيها لهم إلى رأيه وحذراً من سوء ظنهم به(١) :

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٩٣

« قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإناله لنا صحون »

فى الآية استئناف بيانى كأن سائلا سأل : ماذا فعلوا بعد ذلك ؟ هل قبلوا رأيه أم لا ؟ فأجيب على سبيل الاستئناف على وجـــه أدرج فى تضاعيفهم بقولهم له بما سيجيء من قوله سبحانه : « وأجمعوا أن يجعلوه فى غيبت الحب » فقيل : « قالوا يا أبانا »

أى لم تخافنا عليه ونحن نحب له الخير ؟ ، وفى الاستفهام معنى التعجب كأنهم أحسوا من أبيهم بتخوفه منهم عليه فحاولوا أن يزيلوا من نفسه ذلك الإحساس — والكلام ظاهر فى أنه تقـــدم منهم سؤال أن يخرج عليه السلام معهم فلم يرض أبوهم بذلك

« أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإناله لحافظون »

لما تقرر فى أذهانهم التفريق بين يوسف وأبيه وأعملوا الحيلة على يعقوب وتلطفوا فى إخراجه معهم وذكروا نصحهم له وما فى إرساله معهم من انشراح صدره بالارتعاء واللعب إذ هو مما يشرح الصبيان ويفرحهم وذكروا حفظهم له مما يسوؤه(١) .

« أرسله » أى اتركه معنا وفيه دليل على أن يعقوب عليه السلام كان يمسكه ويصحبه دائما .

« غدا » يطلق على اليوم التالى ليومنا ، وعلى الزمن المستقبل مطلقا . « يرتع » أى يكثر من أكل الفواكه وغيرها ، والرتع : الخصب والسعة وأصل معنى الرتع أن تأكل وتشرب ماتشاء فى خصب وسعة ، وقيل : إن الرتع حقيقة فى أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٤ : ٢٨٤

« ويلعب » أى تتدرب على القتال بالاستباق والتناضل ، وسمى لعبا لكونه بصورته ، وإلا ما وافقهم يعقوب عليه .

وفى قولهم : « وإنا له لحافظون » من المؤكدات : إن واللام الواقعة فى جواب القسم وتقديم الجار والمجرور « له » واسميه الجلة لإزالة ما فى نفس أبيهم من تشكك فيهم وخوف منهم على يوسف .

« قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

كأن يعقوب عليه السلام قد أحس الشر الذى يضمره بنوه لأخيهم ولم يشأ أن يخبرهم بتخوفه جانبهم فقال : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » ثم ترقى فى تعليل خوفه عليهم قائلا : « وأخاف أن يأكله الذئب » والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب(١).

وفى الآية استئناف بيانى كان سائلا قال : فماذا قال أبوهم لهم ؟ فقيل : قال ....

ونلاحظ أن يعقوب عليه السلام قد اعتذر إليهم بشيئين :

أولها : حزنه المؤكد والمستمر بدليل قوله « ليحزننى » الذى يفيد الاستمرار على فراق يوسف له وكان لا يتحمل البعد عنه ساعه، وثانيهما: خوفه من عدوان الذئب عليه إذا غفلوا عنه ، أو قل اهتمامهم به(٢) .

وقد أجابوا على اعتذاره الثانى : « الخوف عليه من الذئب » وتركوا الإجابة على اعتذاره الأول « استمرار حزنه على فراقه » لأن نفوسهم

---

(١) عبد الوهاب النجار — قصص الأنبياء ص : ١٥٥

(٢) الزمخشرى : الكشاف : ٣٠٥

لا تطاوعهم على الإجابه عليه لأنه كان سر غيظهم فأصموا اذانهم عنه ولم يهتموا به .

ويرى أحمد بن المنير أن أشغل الأمرين لقلبه كان خوف الذئب عليه لأنه مظنة هلاكه — أما حزنه لمفارقته ريثما يلعب ويعود سالما إليه فأمر سهل فكأنهم لم يهتموا إلا بتطمينه من أشد الأمرين عليه(١) — والأرجح هو التعليل الأول .

« قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون » .

ردوا على أبيهم بتلك المؤكدات : اللام الموطئة للقسم — والجملة المعترضة :

« ونحن عصبة » — واللام الواقعة فى جواب القسم — واسمية الجملة وذلك ليزيلوا ما فى نفس أبيهم من خوف على يوسف ، ولا تبقى له علة يتشبث بها — بأنهم جماعة يعتمد عليهم فى الشدائد وأنهم يستحقون الهلاك والخسران إذا أصاب الذئب أخاهم بمكروه فى وجودهم .

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

بين هذه الآية والتى قبلها محـذوف تقديره : فأجابهم إلى ما سألوه وأرسل معهم يوسف فلما . . . وقد حذف ذلك إيجازا واختصارا (حذف جواب لما كذلك إيجاز واختصارا)وتقديره : فعلوا به ما فعلوا من الأذى .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٠٦

« وأوحينا إليه .... وهم لا يشعرن » .

أى أنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه متعب خائف لا أنيس له كما أنبأناه أنك سوف تتخلص مما أنت فيه وستخبر إخوتك يوما ما .

وقد قيل : إن جبريل عليه السلام نزل عليه فى البئر ، وقيل : إن الله قد أعطاه النبوة فى الجب وكان صغيرا كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام(١) .

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون » فى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : وجاءوا أباهم دون يوسف عشاء يبكون فقال : أين يوسف ؟ قالوا إنا ذهبنا .

« عشاء » أى وقت العشاء إما لأنهم لم يصلوا من مكانهم إلا فى ذلك الوقت — وإما ليكونوا أقدر على الاعتذار لمكان الظلمة التى يرتفع فيها الحياء ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار(٢) .

وقد كان مجيئهم فى عشاء اليوم الذى ذهبوا فيه أو فى عشاء يوم آخر ؟ ظاهر كلام بعضهم الأول ، وذهب بعضهم إلى الثانى بناء على ما روى أنه عليه السلام مكث فى الجب ثلاثة أيام(٣) .

« قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٨٧
(٢) المرجع السابق
(٣) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ١٩٩

لما كان المريب يشعر من نفسه بالتهمة ويتخيل أن كل واحد يطلع على خبيئة أمره قالوا لو الدهم ذلك — أي ما أنت بمصدق لنا ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا(١) .

« وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

روى أنهم ذبحوا جديا أو ظبيا ولطخوا قميص يوسف بدمه وغفلوا عن تمزيقه ولما جاءوا بالقميص إلى أبيه وضعه على وجهه حتى غطت الدماء وجهه من شدة البكاء وصاح يعقوب قائلا : والله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وكان ذلك من ذكاء سيدنا يعقوب عليه السلام ونور إيمانه بالله .

« بدم كذب » أي ذي كذب ، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه(٢) .

كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه والزور بذاته .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا » أي زينت لكم أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه من يوسف وهونته فى أعينكم ، وأصل التسويل : تقدير شيء فى النفس مع الطمع فى إتمامه ، وقيل : هو تزيين النفس لما تحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن ، وقد استدل يعقوب عليه السلام على غدرهم بما كان يعرف من حسدهم ، وبسلامة القيص من التمزق ، أو أوحى إليه بذلك .

---

(١) عبد الوهاب النجار — قصص الأنبياء : ص١٥٦

(٢) وإن كان الكذب صادراً من غيره

« فصبر جميل » أى فأمرى صبر جميل بحذف المسند اليه ، أو فصبر جميل أمثل بحذف المسند . والصبر الجميل : الذى لا شكوى فيه للخلق على حد قول الله على لسان يعقوب: « قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله »(١) .

« والله المستعان على ما تصفون » أى أستعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف .

---

(١) سورة يوسف : ٨٦

٥ — يوسف عليه السلام فى مصر

وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هـذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ، ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين الآيات ١٩ — ٢٢ .

المعـنى

مرت جماعة مسافرة ، فأرسلوا المختص بالماء لإحضاره فكانت المفاجأة الكبرى عندما وجد على الدلو غلاما جميلا صاح على إثر رؤيته : وابشراه — وباعت الجماعة يوسف عليه السلام لعزيز مصر كما يبـاع اللقطاء بثمن ضئيل — وقد توسم فيه العزيز الخير والنفع فأوصى زوجته بحسن معاملته وجاء أن ينتفعوا به أو يتخذوه ولدا ، وكان ذلك مشهداً ثانيا لتمكين الله ليوسف وتأييده له بعد أن أيده بالرؤيا العظيمة وبتفسير الرؤى ، كما أنعم عليه الله بالعلم والحكمة عند مابلغ سن الرشد ، والله لايضيع أجر من أحسن عملا .

التحليل اللغوى والبلاغى

« وجاءت سيارة » أى جماعة تسير من مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف فى الجب .

« فأرسلوا واردهم » الذى يرد الماء ليحضره لأصحابه .

«فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام» أى لما أرسل دلوه فى الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون فقال: يا بشراى هذا غلام!.

وقد قيل فى: «يابشرى» إنه نادى البشرى لنفسه أو لجماعته كأنه نزلها منزلة شخص فناداه وذلك على سبيل الاستعارة المكنية أى يابشرى تعالى فهذا أوان حضورك، وقيل: المنادى محذوف كما فى: ياليت أى: يا قوم انظروا واسمعوا بشراى — وقيل: إنها كلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء وهذا ما أرجحه.

وقيل: إن «بشرى» اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه وذلك بعيد(١).

«وأسروه بضاعة» أى أخفوه متاعا للتجارة، والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة أى: قطع. والضمير المرفوع قيل: للوارد وأصحابه أى: أخفوا أمره وكونه وجد فى البئر وقالوا لسائر القافلة: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وذلك ما يرجحه ظاهر الآيات.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن بعضهم رجع ليتحقق أمره فرآه عند السيارة فأخبر إخوته فجاءوا إليهم فقالوا: هذا غلام لنا أبق فاشتروه، وقد سكت يوسف مخافة أن يقتلوه.

وقيل: كان «يهوذا» يأتيه بالطعام فأتاه يوم أخرج من الجب فلم يجده ووجده عند الرفقة فأخبر إخوته فأتوهم فقالوا ما قالوا(٢).

---

(١) الألوسى: روح المعانى ١٢: ٢٠٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤

« والله عليم بما يعملون » أى لم يخف عليه أسرارهم ، وذلك وعيد لهم حيث تاجروا فيما ليس لهم — أو والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع .

« وشروه » إن كان الضمير المرفوع للإخوة فشرى ، بمعنى : باع وإن كان للسيارة فهى بمعنى : اشترى .

« بثمن بخس » أى ناقص عن القيمة نقصانا ملحوظا .

« دراهم معدودة » بدل مما قبله — أى تعد عدا ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يعدون إلا مابلغ الأوقية وهى الأربعون ويعدون مادونها ، وقيل للقليلة معدودة لأن الكثيرة يصعب عدها لكثرتها .

وعن بن عباس : كانت عشرين درهما ، وقيل : كانت اثنين وعشرين(١) .

وقد جعل الثمن بخسا لأنه كما يقول « بن عطاء » عوض نفس شريفة لاتقابل بعوض وإن جل — وذلك أن الذين باعوه إن كانوا المختصين بالماء فإن ما أخذوه يعد ربحا كله ، وإن كانوا إخوته فلم يكن هدفهم ثمنه وإنما إبعاده عن وجه أبيهم(٢) .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٠٩ — وذكر ابن المنير أن « المعدودة » كناية عن القلة ومن الكناية عن القلة بالعدد الدعوة المأثورة على الكفر « اللهم أحصهم عدداً ، واستأصلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ، فالمدعو به وإن كان إحصاءهم عدداً فى الظاهر إلا أنه غير مراد ، لأن الله تعالى أحصى كل شىء عدداً وأحاط به علما فلابد من مقصود وراء ذلك وهو القلة .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٩٠

« وكانوا فيه من الزاهدين » أى مما يتنازل عما فى يده بأقل ثمن لأنهم ملتقطون له ، والملتقط للشيء متهاون به لايبالى بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه لأول مساوم بأضعف ثمن(١) .

وذكر «أبو حيان» أن زهدهم فيه كان مبعثه إما : رداءة الثمن ، أو إبعاد يوسف لا الحصول على ثمنه ، وذلك إذا كان الضمير فى « وشروه » . « وكانوا » عائدا على إخوة يوسف ، أما إذا كان عائداً على « السيارة » فزهدهم فيه لكونهم ارتابوا فيه أو لوصف إخوته له بالخيانة والإباق أو لعلمهم أنه حر(٢) .

وقيل : إن الضمير فى : « كانوا » إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للجماعة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به ولخوفه أن يظهر صاحبه فيبيعه بأقل ثمن ، وإن كان الضمير للجماعة وكانوا مشترين من بعضهم أو من الإخوة فزهدهم لأنهم اعتقدوا فيه أنه آبق نخافوا أن يخاطروا بما لهم فيه .

وقيل : ضمير (فيه) للثمن وزهدهم فيه لرداءته ، أو لأن مقصودهم ليس إلا إبعاد يوسف عليه السلام وهذا ظاهر على تقدير أن يكون ضمير (وكانوا) للإخوة(٣) .

« وقال الذى اشتراه من مصر » واضح أن هذا الشراء غير الشراء السابق الذى كان بثمن بخس ، وزعم اتحادهما ضعيف حيث لايبقى لقوله « من مصر » كبير فائدة — والمشترى قيل : قطفير أو اطفير وهو العزيز

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٠٩
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ١٩١
(٣) روح المعانى ١٢ : ٢٠٥

الذى كان على خزائن مصر — والملك يومئذ هو :

الريان بن الوليد — آمن بيوسف ومات فى حياته — وقد اشترى العزيز يوسف وسنه سبع عشرة سنة ، وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة ، وأصبح وزيرا للملك الريان بن الوليد وهو بن ثلاثين سنة ، وآتاه الله العلم والحكمة وهو بن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفى وهو بن مائة وعشرين سنة(١)

« أكرمى مثواه » أى اجعلى مكان ثوائه وإقامته كريما ، وذلك كناية عن الإحسان إليه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل الذى ينزل به الضيف لزم أن يكرم الضيف نفسه(٢) .

«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» تعليل لطلب إكرامه من زوجته أى : لعله إذا تدرب وراض الأمور نستعين به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا بكفايته وأمانتـــه — أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان « قطفير » عقيما لا يولد له وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك — وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا — وابنه شعيب عليه السلام التى جاءت موسى عليه السلام وقالت لأبيها : « يا أبت استأجره » وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه من الجب وحب العزيز له ، أى : ومثل ذلك الإنجاء والعطف

« مكناله » أى كما أنجيناه ، وجعلنا العزيز يحبه مكناله فى أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف : ٢ : ٣١٠
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥:٢٩٢

« ولنعلمه من تأويل الأحاديث » أى كان ذلك الإنجاء والتمكين لأن غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل .

« والله غالب على أمره » أى على أمر نفسه لا يمنع عما يشاء ولا ينازع عما يريد ويقضى ، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أن الأمر كله بيد الله .

« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما » قيل فى الأشد : ثمانى عشرة سنة وقيل : عشرون ، وقيل : ثلاث وثلاثون ، وقيل : أربعون ، وقيل : أقصاه : ثنتان وستون .

« حكماً » أى حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه ، وقيل : حكما بين الناس وفقها .

« وكذلك نجزى المحسنين » تنبيه على أنه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه ، وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله(١)

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٠

٦ — محنة يوسف عليه السلام

مع زوجة العزيز

الآيات :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهن ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . ٢٣ — ٢٩

المعنى :

حقا إن أشد الناس بلاء الأنبياء عليهم السلام ثم الأمثل فالأمثل(١) وقد كانت حياة سيدنا يوسف عليه السلام مشاهد متعددة من الابتلاءات التى لا يطيقها من البشر إلا من كان نبيا أو فى مرتبة النبوة ، وقد خرج سيدنا يوسف عليه السلام بعون الله وحفظه منها صابرا منتصراً ، فكان أول ابتلاء من الله له بغى إخوته عليه بالتخلص منه حسداً له على إيثار أبيهم له بمحبة زائدة ، وقد خرج بفضل الله من هـــذا الامتحان وتلك

---

(١) فقرة من حديث شريف .

المحنة ليواجه بامتحان قاس فى صعوبته وبمحنة لا يستطيع تحملها والصبر عليها إلا رسول ذو عزم وجلد ، وذلك فى بيت العزيز حيث راودته زوجة العزيز عن نفسها بعد أن تهيأت لذلك بكل السبل من : إعداد وإغلاق للأبواب — فيستعين سيدنا يوسف بالله ويسأله النجدة ، ويتذكر إكرام العزيز له وائتمانه على بيته وأهله وما ينبغى أن يرد به على ذلك الجميل من وفاء وأمانة ، فيفر إلى الباب هاربا وتسرع زوجة العزيز وراءه لتجد نفسها وجها لوجه مع زوجها فتسرع بتوجيه التهمة إلى يوسف الذى يدافع الله عنه على لسان واحد من أهلها يلتمس من سيدنا يوسف عليه السلام الستر ويدعوها إلى التوبه والاستغفار .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » المراودة : المطالبة برفق من : راد يرود إذا ذهب وجاء لطلب شىء ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ ، وباعتبار الرفق قيل : رادت الإبل فى مشيتها ترود رودانا فهى عبارة عن التمحل لمواقعته إياها — كناية عن طلب النكاح .

والعدول عن التصريح باسمها إلى اسم الموصول « التى » للمحافظة على الستر ما امكن — أو للاستهجان بذكره .

ومجىء المسند إليه (الفاعل) اسم موصول بدلا من زوجه العزيز مع أنه أوجز وأظهر وذلك لتقرير المراودة فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك ، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ، فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى مراتب العفة .

وإضافة البيت إلى ضميرها جريا على عادة العرب من إضافه البيوت

إلى النساء حيث يقال : ربة البيت وصاحبة البيت لأنهن القائمات بمصالحه أو الملازمات له .

« وغلقت الأبواب » أي أبواب البيت الداخليه والخارجية ، وكانت سبعة أبواب كما قيل ، فتشديد الفعل للدلالة على التكثير .

« وقالت هيت لك » أي تهيأت واستعددت لك فأقبل علي

« قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » .

تحدد العبارة السابقة الموانع التي ذكرها سيدنا يوسف عليه السلام للتخلص من زوجة العزيز وردعها وتنفيرها مما أقدمت عليه .

١ — « قال معاذ الله » أي الخوف من الله تعالى .

٢ — « إنه ربي أحسن مثواي » أي كيف يكون لي أن أخون سيدي العزيز الذي وضعني في أحسن مقام ، وائتمنني على بيته وأهله ، فكيف يتأتى مني أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه !! وفيه أيضاً إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه .

٣ — « إنه لا يفلح الظالمون » أي الذين يجازون الحسن بالسيء .

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » .

« ولقد همت به وهم بها » هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه — وقد أطال المفسرون الحديث عن المراد من : « وهم بها » فذكر بعضهم في ذلك كلاماً لا يليق بنبي من أنبياء الله ، واجتهد بعض منهم في صرف الهم إلى تأويل يتفق وجلال النبوة ومن هؤلاء « أبو حيان » في « البحر المحيط » إذ رأى أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل إنه منفي

لرؤية البرهان — والبرهان : هو ما آتاه الله تعالى من العلم الدال على تحريم ماحرم الله(١) .

ولكنى أرى أن تفسير هم يوسف عليه السلام بتحرك الطبيعه البشرية فى نفسه لا يتنافى مع عصمة الأنبياء ولا يقلل من قدر سيدنا يوسف عليه السلام ، بل إن ذلك يرفع من قدر سيدنا يوسف عليه السلام الإنسان الذى يصبر على ذلك صبراً لا يكون إلا من نبى أو رسول ، فتفسير الهم بهذا المعنى يؤكد بشرية يوسف عليه السلام ويؤكد أهليته للنبوة والرسالة، ولذلك استحق يوسف عليه السلام الثناء والمدح من الله تعالى بقوله : « إنه من عبادنا المخلصين » ولم يوجه إليه أدنى لوم أو عتاب يستوجب توبة واستغفارا كما حدث مع بعض الأنبياء عليهم السلام وإنى فى ذلك أوافق صاحب « روح المعانى » فيما ذكره من أن الهم بها يقصد به الميل إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية كميل الصائم فى اليوم الحار إلى الماء البارد ، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف لأنه عليه السلام قصدها قصداً اختيارياً لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات على عدم اتصافه عليه السلام به ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر على سبيل المشاكله(٢) لا لشبهه به(٣) .

« لولا أن رأى برهان ربه » قيل فى البرهان كلام كثير وأولاها فى نظرى أنه يتمثل فى أمرين هما :

١ — إيمانه بالله وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية ، تلك الطهارة التى كانت خلق آبائه وأجداده .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٢٩٥
(٢) هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً .
(٣) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢١٣

٢ — الوفاء لسيده الذى أنعم عليه وأكرمه وأحسن مثواه ووثق به ثقة لا حـــد لها ، والوفاء من شيم الكرام وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم .

« كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » .

اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام أى كان حفظنا وتثبيتنا له لنبعد عنه السوء أى الخيانة لسيده و« الفحشاء » أى الزنا « إنه من عبادنا المخلصين » بالكسر أى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم ، ويجوز أن يراد بالسوء : مقدمات الفاحشه من القبلة والنظر بشهوة ونحو ذلك — وقوله : « من عبادنا » أى من بعض عبادنا — أى هو مخلص من جملة المخلصين ، أو هو ناشيء منهم لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار »(١) .

ونختم الحديث عن هذه الآية بكلمة للفخر الرازى ملخصها :

أن يوسف عليه السلام قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى : « إنه من عبادنا المخلصين »(٢) وشهد الشيطان ببراءته بقوله : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »(٣) وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز إذ قال : « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدهن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا

(١) سورة ص : ٤٦
(٢) سورة يوسف : ٢٤
(٣) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣

واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، وشهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن بقولهن : « ما علمنا عليه من سوء » ، وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو حزب الشيطان ، وكلاهما شهد ببراءة يوسف فلا مفر له من الإقرار بالحق على أى حال ، وهو براءة يوسف من الهم بها(١) .

« واستبقا الباب وقـــدت قميصه من دبر وألفيا سيدها الباب قالت ماجزاؤ من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، « واستبقا الباب » أى نفر منها يوسف مسرعا إلى الباب ليخرج منه وأسرعت وراءه لتمنعه من الخروج — وقد أفرد الباب هنا وجمعه فى قوله : « وغلقت الأبواب » لأن المراد هنا : الباب الخارجى وهو واحد .

« وقدت قميصه من دبر » أى جذبته من خلفه بأعلى القميص من طوقه فانخرق إلى أسفله — والقد : القطع والشق .

« وألفيا سيدها لدا الباب » أى وجدا وصادفا زوجها وهو قطفير — والمرأة تقول لزوجها : سيدى — ولم يضف إليهما لأن قطفير ليس سيد يوسف على الحقيقة .

« قالت ما جزاؤه من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم » فى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فرابه أمرهما وقال : مالكما ؟ فلما سأل وقد خافت لومه أو سبق يوسف بالقول بادرت أن جاءت بحيلة جمعت فيها غرضها وهما : تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ، والغضب على

(١) الفخر الرازى

يوسف وتخويفه طمعا فى أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها لما يئست من استجابته لها طوعا(١) .

ولم تصرح بالاسم بل أتت بلفظ عام تهويلا للأمـــر ومبالغة فى التخويف كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل أحد كائنا من كان — وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظاما للخطب وإغراء له على تحقيق ما يتوخاه بحكم الغضب والحمية(٢) .

« قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

قال هى راودتنى عن نفسى . قال ذلك يوسف عليه السلام تنزيها لنفسه عن التهمة لما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب ، ولولا ذلك لكتم عليها ، وأتى بضمير الغيبة « هى » حيث غاب عليه الحياء أن يشير إليها ويعينها بالإشارة فيقول: هذه راودتنى أو تلك راودتنى — لأن فى المواجهة ما ليس فى الغيبة(٣) .

« وشهد شاهد من أهلها . . . » قيل : كان بن عم لها ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٣
(٢) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢١٨
(٣) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٣

لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه ، وقيل : كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره .

وقد سمى قوله شهادة وليس بشهادة ، لأنه قد أدى مؤداها فى تصديق قول يوسف عليه السلام وإبطال قولها .

وإذا كان تمزيق ثيابه من الخلف يدل على كذبها ، حيث إنها بذلك تكون قد تبعته وجرت وراءه فمزقت ثيابه ، فكيف يدل تمزيق الثياب من الأمام على أنها صادقة وأنه كان تابعا لها ؟

قيل إن ذلك من وجهين : أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهى تدافعه عن نفسها مزقت قميصه من الأمام بالدفع .

والثانى : أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر فى مقدمة قميصه فيشقه(١) .

« فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » أى لما رأى « قطفير » وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها « قال إنه من كيدكن » ، وقد استعظم كيد النساء لأنه وإن كان فى الرجال إلا أن النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة — وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى يقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفا »(٢) وقال للنساء : « إن كيدكن عظيم » .

« يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٤

(٢) سورة النساء : ٧٦

« يوسف » منادى حذف منه حرف النداء لأنه قريب يفطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله .

« أعرض عن هذا » الأمر واكتمه ولا تحدث به .

« واستغفرى » أنت لذنبك .

« إنك كنت من الخاطئين » وقد قال من الخـاطئين ، بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الأناث .

٧ — ظهور الحق فى حفل امرأة العزيز

وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هـذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم .
الآيات : ٣٠ — ٣٤

المعنى :

ذاع ما كان من امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام وتناقلته النسوة فى المدينة باللوم والشماتة ، فدعتهن لحضور حفل فى بيتها لتؤكد لهن عذرها فيما وقع منها ، وأنهن لو وجدن مكانها لفعلن أشد مما فعلت ، وقام الخـدم بتوزيع السكاكين عليهن استعداداً لأكل الفاكهة ، وفاجأتهن بإخراج يوسف عليهن فبهرهن جماله وأذهلهن حسنه وجعلن يجرحن أيديهن بالسكاكين بدلا من تقطيع الفاكهة وكان سرور امرأة العزيز فى تلك اللحظة سروراً لا حد له لأن غرضها قد تحقق من إعداد ذلك الحفل فانطلقت تعترف لهن بالحقيقة وأن الذى سالت الدماء من أيديهن لمجرد رؤيته هو ذلك الذى تعفف وتأبى على مراودتها له ، وعادت تكرر تهديدها له على مرأى ومسمع منهن بإيداعه السجن وإيقاع العـذاب الشديد به إن لم يحقق رغبتها ، واستغاث يوسف بربه يسأله تخفيف ذلك

البلاء الشديد فاستجاب الله له بنقله من هذا البلاء العظيم إلى بلاء السجن الذى وجده أهون على نفسه وأبقى على دينه وخلقه من بلاء الوقوع فى الفاحشة والعياذ بالله .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« وقال نسوة » أى جماعة من النساء وكن خمسا : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة الحاجب .

« فى المدينة » أى فى مصر ، أى إنهم أشاعوا هذا الأمر من شغف امرأة العزيز بيوسف عليه السلام .

« امرأة العزيز » أى زوجة قطفير ، والعزيز : الملك فى لغة العرب ومعناه فى الأصل : الذى يقهر ولا يقهر كأنه مأخوذ من : عز أى حصل فى عزاز وهى الأرض الصلبة التى يصعب حفرها ، ولعلهم كانوا يطلقونه إذ ذاك فيما بينهم على كل من ولاه الملك على عدد محدود من الولايات وهو بهذا المعنى مراد هنا لأنه أريد به قطفير وكان على خزائن الملك — وكان الملك الريان بن الوليد .

وإضافتهن لها إليه « امرأة العزيز » دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليظهر كونها من ذوات الأخطار فيكون ذلك عونا على إشاعة الخبر مبالغة فى التشنيع بحكم أن النفوس أميل لسماع ذوى الأخطار وأصحاب الشأن وما يجرى لهم(١) .

« تراود فتاها عن نفسه » يفيد التعبير بالفعل المضارع « تراود » الدلالة على التجدد والاستمرار وأن مراودتها له أضحت سجية لها .

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢٢٥

والفتى من الناس : الطرى من الشبان ويطلق على المملوك والخادم .

وفى الحديث: « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » وأطلق على يوسف عليه السلام هذا لأنه كان يخدمها — وقيل : لأن زوجها وهبه لها فهو مملوكها بزعم النسوة .

وتعبيرهن عنه عليه السلام بذلك « فتاها » مضافا إليها لا إلى العزيز لإظهار مابينهما من التباعد الظاهر الناشىء عن الخادمية والمخدومية — وذلك لتقرير مامضى من المبالغة فى اللوم لها والتشنيع عليها ، فإن من لازوج لها من النساء أولها زوج ضئيل القدر قد تعذر فى مراودة الفتيان والمخدومين لاسيما إذا كانوا على صفات طيبة ، أما التى لها زوج ولاسيما إذا كان بمثابة زوج امرأة العزيز فإن مراودتها لغيره ولاسيما إذا لم يكن بينهما كفاءة وتماديها فى ذلك غاية الفساد ونهاية الضلال(١) .

« قد شغفها حبا » أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه ، وقيل : هو جلدة رقيقة يقال لها : لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها ، وبهذا يحصل المبالغة فى وصفها بالحب له — وقيل : الشغاف : سويداء القلب فالمبالغة حينئذ ظاهرة .

« إنا لنراها فى ضلال مبين » أى واضح لايخفى بعده عن الصواب على أحد ، وهذه الجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم ، وإنما لم يقلن : « إنها لفى ضلال مبين » بدون « نراها » إشعاراً بأن ذلك الحكم لم يصدر منهن مجازفة بل بعد رأى ونظر ، وذلك مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ماهى عليه (٢) .

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧

« فلما سمعت بمكرهن » أى باغتيابهن وسوء قولهن .

« أرسلت إليهن » أى : دعتهن ، وقيل : دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات .

« وأعتدت لهن متكئا » أى ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد — وقيل مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ووزعت عليهن السكاكين ليعالجن الأكل بها — وقد قصدت بتلك الهيئة وهم قعود متكئات والسكاكين فى أيديهن أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتكىء إذا بهت لشىء وقعت يده على يده — ويجوز أن تكون قد قصدت من ذلك الجمع بين المكر به وبهن ، فتضع السكاكين فى أيديهن ليقطعن أيديهن فتواجههن بالحجة وللتهويل على يوسف ، إذ توهمه إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات فى أيديهن السكاكين أنهن يثبن عليه فيحقق لها مرادها(١) .

« وقالت اخرج عليهن » الظاهر أنها لم تأمره بالخروج إلا لمجرد أن يرينه فيتحقق غرضها ، وقيل : أمرته بالخروج عليهن للخدمة أو للسلام وقد أضمرت مع ذلك ما أضمرت .

« فلما رأينه » عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام ، أى فخرج عليهن فرأينه وقد حذف ذلك : تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن له ، وذكر الخروج يفوت تلك المفاجأة ، كما حقق ذلك الحذف سرعة امتثاله عليه السلام لأمرها فيما لا يرى مضرته من الأعمال .

« أكبرنه » أى : أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق — قيل : كان فضل يوسف عليه السلام على الناس فى الحسن كفضل القمر

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٦ .

ليلة البدر على نجوم السماء ، وعن النبي ﷺ : « مررت بيوسف الليلة التى عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل : من هذا ؟ فقال : يوسف فقيل : يارسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر .

« وقطعن أيديهن » أى : جرحنها كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى — والتضعيف للتكثير إما : بالنسبة لكثرة القاطعات ، وإما : بالنسبة لتكثير الحز فى يد كل واحدة منهن ، فالجرح كأنه وقع مرارا فى اليد الواحدة وصاحبتها لاتشعر لذهولها بماراعها من جمال يوسف ، وكأنها غابت عن حسها(١) .

« وقلن حاش لله » أى تنزه الله تعالى من صفات العجز ، ونتعجب من قدرته على خلق جميل مثله — وأما قوله سبحانه : « حاش لله ماعلمنا عليه من سوء »(٢) فالتعجب من قدرته سبحانه على خلق عفيف مثله — « فحاش » تفيد التنزيه .

« ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » نفين عنه البشرية وأثبتن له الملكية لغرابة جماله وعظيم حسنه ، وذلك لما ركز الله تعالى فى الطباع من أنه لا أحسن من الملك ولا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن والقبح بهما .

« قالت فذلكن الذى لمتننى فيه » أى هذا الذى صدر منكن من الإكبار والإعجاب وتقطيع الأيدى ونفى البشرية عنه وإثبات الملكية له هو الذى لمتننى فيه أى فى محبته — « ولم تقل « فهذا » وقد كان حاضرا رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٠١

(٢) سورة يوسف : ٥١

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » الاستعصام : المبالغة فى الامتناع والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها،وذلك بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه وبرهان لا شيء أوضح منه على تبرئة سيدنا يوسف عليه السلام مما ذكر عن الهم والبرهان .

« ولئن لم يفعل ما آمره » الضمير راجع إلى الموصول أى : ما آمر به لحذف الجار ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية فيرجع الضمير ليوسف والمعنى : ولئن لم يفعل أمرى إياه — أى : موجب أمرى ومقتضاه .

«ليسجنن وليكونا من الصاغرين » الصغار : الذل — وقد قالت له النسوة عقب هذا المشهد المختوم بالتوعد والتهديد : أطع وافعل ما أمرتك به .

«قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » أحب هنا ليست على بابها من التفضيل لأنه لم يحب ما يدعونه إليه قط ، وإنما وجد نفسه أمام شرين ، فآثر أحدهما على الآخر وإن كان فى أحدهما مشقة وفى الآخر لذة — لكن لما ترتب على تلك اللذة من معصية الله تعالى وسوء العاقبة لم يخطر له ببال — ولما فى الآخر من احتمال المشقة فى ذات الله والصبر على النوائب وانتظار الفرج والحضور مع الله فى كل وقت آثره .

«وإلا تصرف عنى كيدهن» فزع منه إلى ألطاف الله تعالى وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر ، وليس إجبارا منه لله تعالى على تحقيق التعفف .

« أصب إليهن » أى أميل إليهن—من الصبوة وهى : الميل إلى الهوى، ومنها الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها . وهى كلمة مشعرة بالميل فقط لا بمباشرة المعصية .

«وأكن من الجاهلين» أي من الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا فائدة لعلمه فهو والجاهل سواء .

«فاستجاب له ربه ... إنه هو السميع العليم»

وقد ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء ، لأن قوله : «وإلا تصرف عنى» فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف .

٨ – يوسف يدعو فى السجن إلى عبادة الله وحده

ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين : قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين .

الآيات : ٣٥ – ٤٢

المعنى :

على الرغم من وضوح الشواهد وتعدد الادلة على صدق وبراءة سيدنا يوسف عليه السلام وكذب امرأة العزيز إلا أن العزيز كان من الضعف ومن الانقياد لزوجته بما جعله ينصر الباطل وذلك بإيداعه يوسف السجن بناء على توجيهات مستشاريه حتى يفهم الناس كذبا أنه لم يسجن إلا لأنه متهم وأن زوجة العزيز بريئة — ودخل يوسف البرىء السجن راضيا بقضاء الله صابرا على بلائه وكثيرا ما يوضع الأبرياء فى قفص الاتهام

ويزج بهم فى السجون — وقد دخل معه فتيان كان أحدهما ساقيا للملك والثانى خباز له — وعرض كل منهما على يوسف رؤيا له فى منامه بعد أن عرفا عنه علمه وحسن خلقه وحسن تعبيره للرؤى — وقد انتهز يوسف تلك الفرصة فتوجه لهداية الفتيين ومن معه من أصحاب السجن إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك ليؤكد بذلك أن أصحاب الرسالات لا ينقطعون عن الدعوة لها مهما ضاقت السبل وأن هدايه الله لإنسان خير للداعى إلى هدايته من الدنيا وما فيها — وفسر رؤيا الساقى بأنه سيغادر السجن ليعاود سقى الملك ، ورؤيا الخباز بأنه سيلقى حتفه ، وأوصى الساقى عند عودته للملك أن يذكره بأمر يوسف وإيداعه السجن لغير إثم ارتكبه ، فيمد الله له فى البلاء بمكثه فى السجن سنين أخر .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات » أى ظهر لهم رأى بإيداعه السجن ، وذلك بعد ظهور الآيات لهم وهى الشواهد الدالة على براءته وقد سئل بن عباس رضى الله عنهما عن الآيات ما هى ؟ فقال : قد القميص ، وأثرها فى جسده ، وأثر السكين — ولم يكن ذلك إلا بتأثير وضغط المرأة على زوجها الذى نفذ رأيها بسجنه وإلحاق الإذلال به كما أوعدته ، وذلك ليأسها من طاعته لها ، أو لطمعها فى أن يذله السجن ويسخره لها — والضمير فى « لهم » للعزيز وأهله .

« حتى حين » أى إلى وقت ينقطع فيه الكلام الذى شاع فى المدينة وذلك بالنسبة للعزيز — وأما بالنسبة لها فيراد به إلى وقت يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم — والحين عند الأكثرين ، وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه والطويل .

« ودخل معه السجن فتيان » « مع » تدل على المعية والصحبة فيفيد ذلك أن الثلاثة دخلوا السجن فى وقت واحد ، والفتيان : عبدان للملك خبازه وساقيه بعد أن نمى إليه أنهما يحاولان قتله مسموما — ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبـله ، فكان يسلى حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير فأحبه الفتيان ولازماه وأحبه صاحب السجن والقيم عليه وقال له : كن فى أى البيوت شئت فقال يوسف له : لاتحببنى يرحمك الله فلقد أدخلت على المحبة مضرات: أحبتنى عمتى فامتحنت بمحبتها ، وأحبنى أبى فامتحنت بمحبته ، وأحبتنى امرأة العزيز فامتحنت بمحبتها بما ترى(١) .

« قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً » أى قال الساقى إنى رايتنى فى المنام ، والتعبير بالمضارع « أعصر » لاستحضار الصورة الماضية ، « أعصر خمرا » أى عنبا يصير بالعصر خمرا ، فى لفظ « خمـر » مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، والقرينة : أعصر - وقيل : الخمر بلغة عمان اسم للعنب - فلا تجوز على ذلك .

« إنا نراك من المحسنين » من الذين يحسنون عبارة الرؤيا — أى يجيدونها — رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له فقالا له ذلك — أو من العلماء لأنهما سمعاه يذكر للناس ما عاما به أنه عالم — أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل مارأينا إن كانت لك يد فى تأويل الرؤيا(٢) .

« قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ....

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٠٨

(٢) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣١٩

لما طلب منه الفتيان تفسير رؤيا كل منهما ووصفاه بالإحسان افترص ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفتة وكذا وكذا فيجد انه كما أخبرهما ، ثم جعل ذلك تخلصا وسبيلا إلى أن يدعوهما إلى التوحيد ويحببهما فى الإيمان بالله وينفرهما من الشرك ، وذلك أسلوب ناجح من أساليب الدعوة — وهو يتمثل فى تقديم الهداية والموعظة والنصيحة أولا حتى تزول الجفوة بين الداعى والمدعوين — وتقرب المسافة بينه وبينهم وبعد ذلك يدعوهم إلى الأولى والأوجب والأوهم — كما يؤخذ من هذا الموقف : أنه لا بأس للعالم أن يتحدث بما آتاه الله من علم وحكمة إذا وجد أن فى ذلك نجاحا لدعوته وتكثيرا للمهتدين به .

« ذلكما مما علمنى ربى » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات مما أوحى به إلى ربى ولم أقله عن تكهن .

« إنى تركت ملة قوم .... هم كافرون » .

يجوز أن يكون كلاما مبتدأ وأن يكون تعليلا لما قبل — أى : علمنى ذلك واوحى إلى لأنى رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهى الملة الحنيفية ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ، وتكرير « هم » للدلالة على أنهم خصوصا كافرون بالآخرة .

ويجوز أن يكون فيه تعريض بما لاقاه من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته ، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء(١) .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٠

وعبر « بتركت » مع أنه لم يتشبث بتلك الملة قط إجراء للترك مجرى التجنب من أول حالة واستجلابا لهما لأن يتركا تلك الملة التى كانا فيها(١).

« واتبعت ملة ابائى ... لايشكرون » .

أى ما صح لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله أى شىء كان من ملك أوجنى أو إنسى فضلا عن أن نشرك به صنما لايسمع ولا يبصر ، وذلك التوحيد من فضل الله على الرسل وعلى المرسل إليهم لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه ، ولكن أكثر المبعوث إليهم لايشكرون فضل الله فيشركون ولا ينتبهون ، وقيل : إن ذلك من فضل الله علينا ، لأنه نصب لنا الأدلة التى ننظر فيها ونستدل بها ، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لاينظرون ولايستدلون اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين .

وقد ذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبى يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى الاستماع إليه واتباع قوله .

وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه عليهم السلام من تقديم التخلية على التحليه .

« يا صاحبى السجن » أى : ياصاحبى فى السجن ، فأضافهما إلى السجن كما تقول : يا سارق الليلة ، والليلة مسروق فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام ، وفى ندائه عليهما بالصحبة تلطف فى حسن الاستدلال على

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٠٩

فساد ماعليه قومهما من عبادة الأصنام فى هذا المكان الشاق الذى تخلص فيه المودة وتتمحض فيه النصيحة .

« أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » أى : أعبادة أرباب متعددة خير أم عبادة واحد قهار وهو الله ؟ . فمن ضرورة العاقل أن يرى خيرية عبادته ، وقد أخرج الكلام فى صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام ، وذلك من فنون الاحتجاج إذ يقدم المحتج لمن يحاجه درجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها فإذا قبلها انتقل به إلى درجة أخرى فوقها ثم هكذا إلى أن ينتهى به إلى قبول الحق والتسليم به .

« ماتعبدون من دونه إلا أسماء ... لا يعلمون » أبطل فى الآية السابقة بالدليل فساد معتقد قومهما . ثم واجههم فى هذه الآية بحقيقة ما يعبدون وأنهم لا يعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ما أنزل الله بها من سلطان ، وانتهى بذلك إلى تقرير مايريده وهو أن الحكم فى أمر العبادة إلى الله الواحد الذى أمر ألا يعبد معه غيره ، وذلك هو الدين الثابت الذى دلت عليه البراهين وإن جهل ذلك كثير من الناس .

« ياصاحبى السجن أماأحدكما .... تستفتيان » بعد أن ألقى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رجاء فى إيمانهما ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما ... بضع سنين » أى قال يوسف عليه السلام لساقى الملك حين علم أنه سيعود إليه بعد خروجه من السجن : اذكرنى عند الملك بعلمى ومكانتى وما أنا عليه مما آتانى الله — أو اذكرنى بمظلمتى وما امتحنت به بغير حق وما كان ذلك من يوسف عليه السلام إلا على سبيل الاستعانة والتعاون على تفريج كربه ، فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك ، أو أنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره لغيره

قد الله له فى السجن بضع سنين وكانت سبعا فى أكثر الأقاويل — والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع .

وإنساء الشيطان للإنسان : بأن يوسوس له ما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يزول عن قلبه ذكره ، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير »(١) .

وقد يسأل فيقال : لماذا أنكر على يوسف عليه السلام الاستعانة بغير الله فى كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى : وتعاونوا على البر والتقوى(٢) .

وقال حكاية عن عيسى عليه السلام : « . . . قال من أنصارى إلى الله . . . »(٣) .

وفى الحديث : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » وهل ذلك إلا مثل التداوى بالأدوية والتقوى بالأشربة والأطعمة ، وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً فلا خلاف على جواز الاستعانة بالكفار فى دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار ؟

ويجاب على ذلك : بأن الله تعالى كما اصطفى الأنبياء على خلقه فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها والأفضل بالنبى أن لا يكل

---

(١) سورة البقرة : ١٠٦
(٢) سورة المائدة : ٢
(٣) سورة آل عمران : ٥٢

أمره إذا ابتلى ببلاء إلا إلى ربه ، ولا يستمد العون إلا منه وبخاصة إذا كان المستعان به كافراً لئلا يشمت به الكفار ويقولوا : لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا(١) .

واختار « أبو حيان » أن يوسف عليه السلام إنما قال للساقى: اذكرنى عند ربك ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله كما توصل إلى إيضاح الحق له ولرفيقه (٢) .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٢
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣١١

٩ — مغادرة يوسف السجن

الآيات :

وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم .

الآيات من : ٤٣ — ٥٣

المعنى :

صبر سيدنا يوسف عليه السلام على ابتلاء الله له بالسجن وهو برىء حتى أراد الله خروجه من السجن فهيأ لذلك الأسباب إذ رأى الملك رؤيا عجيبة اشتد فزعه لها — رأى سبع بقرات هزيلات يخرجن على سبع بقرات جميلات فيأكلنها . كما رأى سبع سنبلات جافات تلتوى على سبع سنبلات خضر حتى يسقطنها ، وعجز الحكماء والمنجمون عن تأويل هذه الرؤيا ، فأخبرهم الساقى الذى صاحب يوسف فى السجن وبشره بمغادرة السجن أن تأويل تلك الرؤيا على وجهها الصحيح لا يتأتى إلا عند رجل فى السجن — وذهب الساقى ليعرض على يوسف فى السجن رؤيا الملك — فأخبره يوسف أن الخير يعم مصر لمدة سبع سنوات تجود فيها الأرض بالزرع والثمر . ثم تليها سبع سنوات ينتشر فيها القحط والجدب وبعد ذلك يجىء الرخاء ، وأن عليهم الاقتصاد فى سنوات الرخاء والادخار لأعوام الجدب وعاد الساقى إلى الملك بذلك التأويل الذى اطمأنت له نفسه ووجد التفسير المقبول ، فطلب مقابلة يوسف وإحضاره من السجن ، ويأبى سيدنا يوسف عليه السلام أن يغادر السجن إلا بعد أن تعلن على الناس براءته ، وعاد رسول الملك من عند يوسف يطلب منه سؤال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى حفل امرأة العزيز ، وقد اعترفت النسوة فى سؤال الملك لهن بطهارة يوسف وعفته وبعده عن السوء ، وفى هذه اللحظات وقد أصبح من هم الملك أن يقرب يوسف إليه وأن يستعين به وأخذ الحق يعلن عن نفسه ، رأت امرأة العزيز أن تماديها فى ضلالها لا يحقق لها غرضا ولا يلحق بيوسف ضرراً فأعلنت الحقيقة لأول مرة لتغنى بذلك عن كل شهادة .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« وقال الملك » أى ملك مصر وهو الريان بن الوليد .

« إنى أرى » أى رأيت ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة .

« سبع بقرات سمان » أى ممتلئات لحما وشحما .

« يأكلهن سبع عجاف » أى أكلهن سبع بقرات مهزولات جدا ، من العجف وهو : الهزال الذى ليس بعـــده هزال — والتعبير بالمضارع « يأكلهن » لاستحضار الصورة تعجبا .

« يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » .

« الملأ » أشراف دولته وأعيانهم الذين يحضرون عنده ، والتعبير « بأفتونى » لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه .

« إن كنتم للرؤيا تعبرون » أى إن كنتم تستطيعون عبارة الرؤيا ، وعبرت الرؤيا بالتخفيف وليس بالتشديد : ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول : عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه ونحوه : أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها .

وفى قول الملك : « إن كنتم للرؤيا تعبرون » دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها ودل على ذلك « إن » التى تفيد الشك ، وقد جاء اعترافهم بالقصور عن التأويل مطابقا لشك الملك فى ذلك ، ودل على ذلك الشك أيضا قول الفتى الساقى : « أنا أنبئكم بتأويله . . إلى قوله : لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون »

وقد جعل الله تعالى هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك عند رؤيته لها قلق واضطرب ، حيث يتغلب فيها

الضعيف الناقص على القوى الكامل وذلك ينذر بشيء من الشر لا يدرى حقيقته ، وقوى الله رغبة الملك فى الوقوف على تعبير تلك الرؤيا ، ثم إنه تعالى أعجز الذين حضروا عنده من الحكماء والمنجمين عن تعبيرها ليصير ذلك سببا لنجاة يوسف عليه السلام من تلك المحنة (١) .

« قالوا أضغاث أحلام » . . . »

استئناف بيانى كأنه قيل : فماذا قال الملأ للملك إذ قال لهم ذلك ؟ فقيل : قالوا . . .

« أضغاث أحلام » أى تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان . وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات — الواحد : ضغث والإضافة فيه من إضافة المشبه به للمشبه . والأحلام جمع : حلم بضمة وبضمتين : المنامات الباطلة ، وقيل : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقا ، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير ، وغلب الحلم على خلافه ، وفى الحديث : « الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان » .

وقد جاءت « أحلام » بجموعه ، وكان حلما واحدا على حد قولنا : على يركب الخيل وليس له إلا فرس واحد وذلك للمبالغة فى ركوبه الخيل ، وللمبالغة هنا فى وصف الحلم بالبطلان جعلوه « أضغاث أحلام » ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (٢) . أو تكون جمعت باعتبار متعلقاتها (٣) .

---

(١) الفخر الرازى — مفاتيح الغيب ط ثانية ١٣٢٤ هـ .

(٢) الزمخشرى . الكشاف ٢ : ٣٢٤

(٣) أبو حيان : البحر المحيط : ٣١٣

« وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » إما أن يريدوا بالأحلام : المنامات الباطلة خاصة فيقولوا : ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا من الجيدين فى تأويل الأحلام .

« وقال الذى نجا منهما » أى الذى نجا من الفتيين من القتل وهو الساقى « وادكر » أى تذكر والأصل : اذ تذكر أبدلت التاء دالا وأدغمت الذال فيها .

« بعد أمة » أى بعد فترة طويلة ، وقرىء : بعد أمة بكسر الهمزة أى : نعمة — أى : بعد ما أنعم الله عليه بالنجاة ، وقرىء : بعد أمه — أى : بعد نسيان .

« أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » فى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له .. وإنما لم يصرح « بيوسف » حرصا على أن يكون هو المرسل إليه ، فإنه لو ذكره فلربما أرسلوا غيره ، والضمير فى « فأرسلون » للملك وجاء مجموعا لقصد التعظيم كما هو معروف فى خطاب الملوك .

« يوسف أيها الصديق » أى : أيها البليغ فى الصدق ، وقد قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول ، ولأنه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره ، فهو من براعة الاستهلال ، وفى ذلك إشارة إلى أنه ينبغى على المستفتى أن يرفع من قدر من يستفتيه وأن يحسن الأدب فى التحدث معه(١) .

« أفتنا » لم يقل : أفتنى مع أنه المستفتى وحده إشعاراً بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ، وأنه فى ذلك سفير .

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢٥٤

« لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » إنما قال : « لعلى » لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما مات دون ذلك ، ولا من علمهم فربما لم يعلموا أو لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبونك ويخلصونك من محنتك(١) .

وذكر « الفخر الرازى » أنه قال : لعلى أرجع إلى الناس بفتواك ، لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة نخاف أن يعجز هو أيضا عنه(٢) .

« قال تزرعون سبع سنين » خـــبر فى معنى الأمر كقوله سبحانه : تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون(٣) » .

وإنما يخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله : «فذروه فى سنبله » .

« دأبا » أى متتابعة كعادتكم فى المزارعة مصدر : دأب فى العمل(٤).

« فذروه فى سنبله » لئلا يتسوس :

أى : اتركوا الزرع فى السنبل إلا ما لاغنى عنه للأكل .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٤ .

(٢) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ٥ : ١٣٥

(٣) سورة الصف : ١١

(٤) وأصل معناه : التعب ، ويكنى به عن العادة المستمرة ، لأنها تنشأ من مداومة العمل اللازم له التعب .

« ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد » أى السنوات السبع الجدبات .

« يأكلن ما قدمتم لهن » بإسناد الأكل إليهن والأكل فى الحقيقة للأهل والسنوات السبع : زمان يقع فيه الأكل ، وذلك على سبيل المجاز العقلى لعلاقة الزمانية .

« إلا قليلا مما تحصنون » أى تحرزون وتحفظون مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ .

« . . . فيه يغاث الناس » من الغوث أو من الغيث . يقال : غيثت البلاد إذا أرسل الله إليها المطر .

« وفيه يعصرون » العنب والزيتون والسمسم . وقيل : يحلبون الضروع وقيل : بمعنى ينجون كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم — أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا .

والمعنى : فإذا جاءت السنون الجدبة أخذتم الأقدم فالأقدم مما ادخرتم ثم يأتى من بعد ذلك عام يرسل الله فيه الخير .

و « العام » كالسنة لكنه يستعمل كثيرا فيما فيه الرخاء والخصب ، وتستعمل السنة فيما فيه الشدة والجدب ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة .

« وقال الملك ائتونى به . . . بكيدهن عليم » .

فى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فرجع الرسول إلى الملك ومن معه فنص عليهم مقالة يوسف فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأى فعظم يوسف فى نفس الملك وقال : ائتونى به فلما وصل الرسول فى إخراجه إليه وقال له : إن الملك قد أمر بأن تخرج إليه قال له : ارجع إلى ربك أى إلى الملك وقل له : ما بال النسوة . . الخ .

« فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك » .

كان ذلك من سيدنا يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته وذلك أنه فيما يروى خشى أن يخرج فينال عند الملك مكانة ، ويسكت عن أمر دينه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون : هذا الذى راودته امرأة مولاه فأراد يوسف عليه السلام أن يؤكد للملأ براءته ويعلن للناس عفته حتى إذا خرج من السجن كان من المنزلة بمكان(١) .

وفى ذلك دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها مصداقا لقوله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » .

ولأجل هذا كان « الزمخشرى » عليه رحمة الله وكان مقطوع الرجل قد أثبت على القضاة أن رجله لم تقطع فى خيانة ولا فساد وكان يظهر ذلك المكتوب فى كل بلد دخله خوفاً من تهمة السوء(٢) .

« فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » إنما قال : فاسأله ما بال النسوة . . ولم يكشف له عن القصة ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملا مما يدفع الملك إلى بحث القصة حتى تحصل البراءة له عليه السلام من الملك بالدليل والبرهان .

كذلك لم يتعرض عليه السلام لامرأة العزيز وهى السبب فيما ألم به تأدبا وتكرما ، وقد حملها ذلك على الاعتراف بنزاهته وبراءة ساحته — وقيل : كان ذلك احترازا عن مكرها حيث اعتقدها باقية فى ضلالها القديم وأما النسوة فقد كان يطمع فى نطقهن بالحق وشهادتهن بإقرارها أنها راودته

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣١٦ .
(٢) المرجع السابق .

عن نفسه فاستعصم ، ولذا اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى ولم يصرح بمراودتهن له مكتفيا بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إن ربى بكيدهن عليم » مجاملة معهن واحترازا عن سوء مقالتهن عند وقوفهن أمام الملك للدفاع عن أنفسهن(١) .

« إن ربى بكيدهن عليم » أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد غوره ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه وأنه برىء مما نسب إليه — أو أراد الوعيد لهن أى هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه(٢) .

« قال ما خطبكن » أى ما شأنكن ، والخطب : الأمر العظيم الذى يحق لعظمته أن يكثر فيه التخاطب .

وفى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فرجع الرسول فأخبره بما قال يوسف فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز وقال لهن : « ما خطبكن » .

« إذ راودتن يوسف عن نفسه » بأن طلبتن منه طاعة مولاته هل وجدتن منه ميلا إليكن ؟

« قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » تعجبا من عفته وذهابه بنفسه عن شىء من الريبة ومن نزاهته عنها .

قال بن عطية : أجاب النساء بجواب جيد تظهر منه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف عليه السلام بعض براءة ، إذ كان ردهن على تقرير الملك لهن بمراودة يوسف : « حاش لله ما علمنا عليه من سوء » ولم يكن ذلك

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢٥٧

(٢) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٦

إبراء تاما ، وإنما كان الإبراء التام فى ذكر ما وقع كاملا حتى يتأكد الخطأ فى جهتهن(١) .

« قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ..... » .

قيل : كانت حاضرة المجلس ، وقيل : أقبلت النسوة عليها يقررنها ، وقيل : خافت أن يشهد عليها بما قالت يوم قطعن أيديهن فأمرت قائله : الآن حصحص الحق أى : ظهر وتبين بعد خفاء من الحصة وهى القطعة من الجملة أى ظهرت حصة الحق من حصة الباطل — وقيل : هى من حص شعرة إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه — ويرجع ذلك إلى الظهور أيضا — .

وقيل : هو من حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ ، والمعنى : الآن ثبت الحق واستمر(٢) .

« ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ... غفور رحيم » .

قيل : إن ذلك من كلام سيدنا يوسف عليه السلام — أى كان ذلك التثبت لظهور البراءة ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى حرمته .

ومحل (بالغيب) الحال من الفاعل أى : وأنا غائب عنه خفى عن عينه أو الحال من المفعول أى : وهو غائب عنى خفى عن عينى .

ويجوز أن يكون ظرفا : أى بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة(٣).

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣١٧

(٢) الألوسى : روح المعانى ١٢ : ٢٥٩

(٣) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٦

« وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » أى لا ينفذه ولا يسدده ، وفى ذلك تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها ، وبه فى خيانته أمانة الله حين ساعدها مع ظهور الآيات على حبسه ، ويجوز أن يكون ذلك تأكيدا لأمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله كيده ولا سدده .

« وما أبرىء نفسى ... » .

ثم أراد يوسف عليه السلام أن يتواضع لله ويهون من شأن نفسه لئلا يكون لها مزكيا وبها معجبا كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » وليبين أن ما فيه من الأمانة إنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال : « وما أبرىء نفسى » أى ما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها إما فى هذه الحادثة على ما ذكر من أن الهم هو ميل النفس عن طريق الطبيعة البشرية لا عن طريق القصد والعزم ، وإما فى عموم الأحوال .

« إن النفس لأمارة بالسوء » أراد الجنس — أى إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات .

« إلا ما رحم ربى » أى إلا لبعض الذى رحمه ربى بالعصمة كالملائكة — ويجوز أن يكون « ما رحم » فى معنى الزمان إلا وقت رحمة ربى — يعنى : أنها أمارة بالسوء فى كل وقت وأوان إلا وقت العصمة(١) .

ويستعين الذين يرون أن ذلك من كلام يوسف عليه السلام بالمعنى كدليل يشير إلى ذلك .

ويرى جماعة أن القول بأنه من كلام يوسف يحتاج إلى تكلف يربط

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٧

بينه وبين ما قبله ولا دليل يدل على أنه من كلام يوسف ، فإن نظم الآيات وروح الموضوع يأبيان ذلك ، وقد قيل هذا الكلام ويوسف فى السجن قبل أن يقول الملك:

« ائتونى به أستخلصه لنفسى » مما يترجح معه أن يكون ذلك من كلام امرأة العزيز .

ويدخل تحت قولها : « قالت .. والمعنى فى ذلك: الإقرار والاعتراف بالحق ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته وأرميه بذنب هو منه برىء ، ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات بقولها : « وما أبرىء نفسى » والنفوس مائلة إلى الشهوات أمارة بالسوء(١) .

وذكر الفخر الرازى أن جعل القول لأى من يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز يبقى مشكلا بلادليل ، فجعله كلاما ليوسف مشكل لأن قوله تعالى : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق » كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره ، فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد ، وجعله كلاما للمرأة مشكل أيضا لأن قوله : « وما أبرىء نفسى » كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصى ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، وذلك لا يليق بالمرأة التى استفرغت جهدها فى المعصية(٢) .

والذى أراه أن كلام امرأة العزيز يتمثل فى اعترافها بالحق لأول مرة بمحضر من النسوة أمام الملك بقولها : « الآن حصحص الحق ... لمن الصادقين » وأن ما بعد ذلك إنما هو من قول سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن تجلت

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣١٧

(٢) الفخر الرازى — مفاتيح الغيب ٥ : ١٣٨ ، ١٣٩

براءته وأظهر الله الحق واضحاً ، وأن قوله : « وما أبرىء نفسى ... » لا يقدح فى عصمته ، لأنه يثبت فى ذلك تحرك النفس بما أودع الله (إنما أودع الله) فيها من غرائز وذلك قاسم مشترك بين جميع أفراد البشر ، وإذا كانت النفس من شـــأنها الأمر بالسوء كما ذكر فإن من عباد الله من لا يستجيب لنزغاتها ولا ينقاد لو ساوسها وذلك ما كان منه عليه الصلاة والسلام والله أعلم بأسرار كتابه.

١٠ – يوسف عليه السلام وزيرا للاقتصاد

الآيات :

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين ءامنوا وكانوا يتقون).

الآيات من : ٥٤ - ٥٧

المعـــنى :

باعتراف امرأة العزيز لأول مرة بمراودتها ليوسف فى حضور النسوة بين يدى الملك حسم الأمر وتجلت براءة يوسف للناس جميعا فأرسل إليه الملك ثانياً ليقف على مشورته فى تنظيم أمور الدولة ومواردها ، فخرج يوسف من السجن ليلتقى بالملك ويشرح له رأيه وحسن تدبيره ويسند إليه خزانة الدولة ويمنحه حرية التصرف أنى شاء ، وكان ذلك جزاء فى الدنيا من الله ليوسف على إحسانه وصبره ، وللآخرة خير وأبقى .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى » :

يقال : استخلصه واستخصه : إذا جعله خالصا لنفسه وخاصا به .

« فلما كلمه » الظاهر أن الفاعل لكلمه هو ضمير الملك – أى : فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورته ، ويحتمل أن يكون الفاعل ضمير

يوسف أى : فلما كلم يوسف الملك ورأى الملك حسن منطقه — وفى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فسمع الملك كلام النسوة وبراءة يوسف عليه السلام مما رمى به فأراد رؤيته وقال . ائتونى به فأتاه فلما كلمه . . . وحذف ذلك للإيذان بسرعة الإتيان فكأنه لم يكن بينه وبين الأمر بإحضاره عليه السلام والخطاب معه زمان أصلا .

« قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

« اليوم » زمان للتكلم وليس معياراً للأمانة والمكانة ، ويراد بذلك : تحديد مبدئهما احترازا عن كونهما بعد حين .

« لدينا » أى عندنا ، ويفيد التعبير بها : الاعتناء بشأنه عليه السلام كما يعبر عن هذا الاعتناء : اسمية الجملة وتأكيدها .

و «مكين» أى ذو مكانة ومنزلة .

و « أمين » أى مؤتمن على كل شىء ، وقيل : آمن من كل مكروه لكن الوصف بالأمانة أبلغ فى الإكرام .

« قال اجعلنى على خزائن الأرض » أى أرض مصر - وقيل : أراد بالأرض الجنس ، وبخزائنها : الطعام الذى يخرج منها .

« إنى حفيظ عليم » أى أمين أحفظ ما أتولى حفظه ، وأعلم وجه التصرف فيه — وقيل : حافظ للحساب عالم باللغات .

وقد وصف نفسه عليه السلام بهذين الوصفين اللذين يعتمد عليهما الملوك والحكام فيمن يولونهم - وذلك ليتمكن من تنفيذ أحكام الله تعالى وإقامة الحق ونشر العدل وغير ذلك مما يفعله الأنبياء ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك - فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا(١)

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٨

وقد يسأل فيقال : لماذا طلب سيدنا يوسف عليه السلام الإمارة وقد نهى النبي (ص) عن طلب الإمارة في قوله لعبد الرحمن بن سمرة « لاتسأل الإمارة .. الحديث » ولماذا بادر بطلب تولى الخزائن مع أن ذلك يورث نوع تهمة ؟

وقد أجاب الفخر الرازى بأن ذلك التصرف كان واجبا عليه لأمور منها : أنه كان رسولا حقا من الله تعالى إلى الخلق ، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان .

ومنها : أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق فلعله تعالى أمره أن يصنع شيئاً يقلل من ذلك الضرر .

ومنها : أن السعى فى إيصال النفع إلى من يستحقونه ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن ، وقد كان عليه السلام مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ولم يكن يتأتى له رعايتها إلا بهذا الطريق ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب فكان هذا التصرف واجبا عليه(١)

ويدل ثناء يوسف عليه السلام على نفسه « إنى حفيظ عليم » على أنه يجوز للإنسان أن يثنى على نفسه بالحق إذا جهل أمره ، ولا يعد ذلك من التزكيه المنهى عنها(٢)

« وكذلك مكنا ... ... وكانوا يتقون »

أى ومثل ذلك الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من الحبس أقدرناه على مايريد فى أرض مصر يتخذ منها مباءة

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ٥ : ١٤٠ ، ١٤١

(٢) أبو حيان . البحر المحيط ٥ : ٣١٩

ومنزلا فى أى مكان ، وصار فى الملك بحيث لايدافعه أحد ولا ينازعه منازع

روى أن الملك توجه وألبسه خاتمه ، وخلع عليه سيفه وفوض إليه أمره ، وعزل قطفير ، ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته : « زليخا » فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما طلبت ؟ فوجدها عذراء فولدت له ولدين ـ وأقام العدل بمصر ـ وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس ـ وباع لأهل مصر فى سنوات القحط الطعام بالدنانير والدراهم فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها ، ثم بالحلى والجواهر ، ثم بالدواب ، ثم بالضياع والعقار ، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا ، فقالوا : والله مارأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم منه فقال للملك : كيف رأيت صنع الله بى فيما خولنى فما ترى ؟ قال الرأى رأيك قال : فإنى أشهد الله وأشهدك أنى اعتقت اهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم املاكهم(١)

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٢٩

١١ — يوسف عليه السلام يغيث إخوته

الآيات :

وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون .

وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل . وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الآيات : ٥٨ — ٦٨

المعنى :

اقتضت حكمة الله أن تكون نجاة إخوة يوسف بل نجاة أهل مصر والبلاد المجاورة من مخاطر الفقر والجوع على يد يوسف الذى عملوا على التخلص منه وكثيراً مايوجد النفع ويحصل الخير حيث يتوقع الضرر

والشرر مما يؤكد أن النفع والضرر مردهما إلى الله وحده — وقد جاء إخوة يوسف من فلسطين إلى مصر ليتزودوا بالطعام — ودخلوا على يوسف الذى عرفهم ولم يعرفوه لعدم تغير صورتهم وهيأتهم التى عرفهم بها وتبدل منظره وهيئته لهم لكبر السن وزينة الملك — وقد أحسن مقابلتهم وزودهم بحاجتهم من الطعام ورد إليهم دون أن يشعروا ثمن الطعام الذى أخذوه وطلب منهم إحضار أخيهم بنيامين فى المرة المقبلة بعد أن اطمأن منهم على حياته فى كنف أبيه ، وتوعدهم بعدم إعطائهم ما يحتاجون من طعام فى المرة المقبلة إذا لم يصطحبوه معهم . وعادوا إلى أبيهم يقصون عليه ما نالوه من خير وبر على يد عزيز مصر ، ويلحون عليه فى اصطحاب أخيهم معهم إلى العزيز رداً لجميله ، ووفاء بعهدهم معه وضماناً للحصول على الطعام فى المستقبل ولاسيما بعد أن فوجئوا عند فتح الأمتعة بالثمن مردوداً إليهم ، وسرعان ماتذكر يعقوب عليه السلام ما كان منهم مع يوسف وتعهدهم بحفظه ، لكنه لم يجد بداً أمام إلحاحهم وحاجتهم للطعام إلى موافقتهم على اصطحاب أخيهم معهم بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه والعودة به سالماً إلا عندما يحل بهم مكروه على غير إرادة منهم ، ثم نصحهم بالتفرق وعدم التجمع عند دخول مصر إيثاراً للسلامة أخذاً بالأسباب مع تفويض الأمر فيهم إلى الله سبحانه وتعالى الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر من القحط والجدب، وحل بيعقوب عليه السلام ماحل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين قائلا لهم : يابنى بلغنى أن بمصر ملكاً يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

« فعرفهم » إنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى ملابسهم قريبة من

هلابسهم إذ ذاك — ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم وكان يترقب بجيئهم إليه لما يعلم من تأويل رؤياه — وروى أنهم انتسبوا فى الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم ولذلك قال الحسن : ماعرفهم حتى تعرفوا إليه .

« وهم له منكرون » أى والحاله أنهم منكرون له لطول العهد ومفارقته إياهم فى سن الحداثة — أو لاعتقادهم أنه هلك ، وذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه — أو لبعد حاله التى بلغها من الملك والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحاً فى البئر — وقيل : إنما لم يعرفوه لأنه عليه السلام أوقفهم موقف ذوى الحاجات بعيداً منهم وكلمهم بالوساطة — وقيل : إن ذلك لمحض أنه سبحانه لم يخلق العرفان فى قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة له عليه السلام .

ولما كان إنكارهم له عليه السلام أمراً مستمراً فى غيبته وحضوره أخبر عنه بالجملة الاسمية « وهم له منكرون » بخلاف تعرفه عليه السلام عليهم .

« ولما جهزهم بجهازهم » أى حمل ركائبهم بما جاءوا لأجله وهو الطعام ، وقد روى أنه لم يكن يعطى الفرد أكثر من حمل بعير ليحصل على القوت كل من يطلبه — وأصل الجهاز : مايحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع — وجهاز العروس : ما تزف به إلى زوجها — وجهاز الميت : ما يحتاج إليه فى دفنه .

« قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم » .

قيل فى سبب سؤال يوسف عليه السلام إخوته بجيئه إليه بأخ لهم من أبيهم أنه كان من عادته أن يعطى كل واحد حمل بعير ، فلما سألوه حملا

زائداً لبنيامين الذى ينتظر مع أبيهم الكبير أعطاهم ذلك بشرط أن يحضروه معهم ليتحقق من صدقهم .

وتنكير « أخ » ولم يقل « بأخيكم » مبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم كأنه لا يدرى من هو ، ولو أضافه أفاد معرفته وذلك كالفرق بين مررت بصديقك ومررت بصديق لك — حيث تفيد إضافة الصديق فى الأول معرفته بينما يفيد تنكيره فى الثانى : الجهل به .

« ألا ترون أنى أوفى الكيل » أى أتمه ، وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للتنبيه على أن ذلك عادة مستمرة .

« وأنا خير المنزلين » جملة حالية ، أى والحال أنى فى غاية الإحسان فى إنزالكم وضيافتكم ، وكان هذا القول منه عليه السلام إيناساً وتحريضاً لهم على الإتيان بأخيهم ولا يراد منه الامتنان .

« فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون »

إيعاد وترهيب لهم لعدم إحضار أخيهم بعد أن وعدهم ورغبهم فى الآية السابقة إلى إحضاره ، أى : لا كيل لكم فى المرة المقبلة فضلا عن الإيفاء ولا تقربون بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة ، وفى ذلك دليل على أنهم كانوا على نية العودة للتزود بالطعام مرة ثانية ، وأن ذلك كان معلوماً له عليه السلام .

« قالوا سنراود عنه أباه » أى سنخادعه ونستميله برفق ونجتهد فى ذلك .

« وإنا لفاعلون » أى : وإنا لقادرون على ذلك ، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى ، وفى ذلك دلالة على عزة المطلب وصعوبة منالة .

« وقال لفتيانه » أى الخدم الكائلون.

« اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم » روى أنه عليه السلام وكل بكل رحل رجلا يعبىء فيه بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما — وأصل البضاعة : قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة والمراد بها هنا : ثمن ما اشتروه — والرحل : ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره — وقال الراغب : هو ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به تارة عن البعير وأخرى عما يجلس عليه فى المنزل — وقد فعل عليه السلام ذلك تفضلا عليهم وخوفاً أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى ، وقيل : لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً — وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها — وقيل : معنى : لعلهم يرجعون : لعلهم يردونها — وذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيهم ،

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ».

يريدون قول يوسف : « فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ... ».

« فأرسل معنا أخانا نكتل ... » أى نرفع المانع من الكيل ونكتال من الطعام ما نحتاج إليه — وقرىء : « يكتل ... » بمعنى يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا ، أو يكن سببا للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

وقد عبر عن المنع المتوعد به فى المستقبل بالفعل « منع » الماضى بجعل الإنذار بالمنع والتهديد به كأنه منع.

« قال هل آمنكم عليه ... وهو أرحم الراحمين ».

أى : ما ائتمنكم عليه إلا كائتمانكم على أخيه يوسف من قبل، وقد قلتم فى الحفاظ عليه ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم ، فلا أثق بكم ولا بحفظكم . وإنما أفوض أمرى إلى الله تعالى.

« ولما فتحوا متاعهم » المتاع : كل ماينتفع به على وجه ، وهو فى الآية: الطعام ، وقيل : الوعاء وكلاهما متاع ,وهما متلازمان فإن الطعام كان فى الوعاء ، والمعنى : أنهم لما فتحوا أوعية طعامهم .

« وجدوا بضاعتهم ردت إليهم » أى التى كانوا قدموها ثمناً للطعام .

« قالوا يا أبانا ما نبغى ... » .

« ما » إما أن تكون نافية أى : ما نبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه — وكانوا قالوا له : إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا مثله — أو ما نبتغى شيئاً وراء مافعل بنا من الإحسان .

أو تكون استفهامية أى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : « ماتبغى » بالتاء على مخاطبة يعقوب أى : أى شىء تطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صدقنا ؟

« هذه بضاعتنا ردت إلينا » جملة مستأنفة موضحة لقوله : « ما نبغى » والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى : إن بضاعتنا ردت إلينا فنستعين بها .

« ونمير أهلنا » فى رجوعنا إلى الملك .

« ونحفظ أخانا » فلا يصيبه شىء مما تخافه .

« ونزداد كيل بعير » أى ونزداد باستصحاب أخينا حمل بعير زائداً على أحمال أباعرنا ، فأى شىء نبتغى وراء هذه المكاسب التى نحسن بها أحوالنا ؟

« ذلك كيل يسير » أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يقصدون مايكال لهم فأرادوا أن يضموا إليه مايكال لأخيهم — ويحتمل أن تكون الإشارة إلى « كيل بعير » أى ذلك الكيل شىء قليل يجيبنا إليه الملك — أو سهل

أو سهل عليه متيسر — ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد .

« قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله » أي حتى تحلفوا لي بالله ... » وقد جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف بالله مما تؤكد به العهود وتشدد .

« لتأتنني به » جواب اليمين أي : حتى تحلفوا لتأتنني به .

« إلا أن يحاط بكم » أي : إلا أن تغلبوا فلا تستطيعوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا ، وأصله من إحاطة العدو .

« فلما آتوه ثقهم قال الله على ما نقول وكيل » أي : فلما حلفوا له على مجيئهم به قال يعقوب : الله على ما نقول من طلب الموثق وإعطائه وكيل رقيب مطلع .

فإن قيل : لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد منهم ؟

أجيب بأن ذلك لوجوه — أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح — وثانيهما : أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، وثالثها : أن ضرورة القحط أحوجته لذلك . ورابعها : لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه(١) .

« وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » .

نهاهم يعقوب عليه السلام أن يدخلوا من باب واحد لأنهم كانوا ذوي

---

(١) الفخر الرازي — مفاتيح الغيب ٥ : ١٤٥

بهاء وشارة حسنة فخاف لذلك إن دخلوا جماعة واحدة أن ينزل بهم مكروه — ولذلك لم يوصهم بالتفرق فى المرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس ، وقيل : إن خوفه عليهم من العين فى هذه المرة لأن « بنيامين » الذى كان يتسلى به عن يوسف كان معهم فى هذه المرة ولم يكن معهم فى المرة الأولى فأهمل أمرهم ولم يحتفل بهم لسوء صنيعهم فى يوسف .

« وما أغنى عنكم من الله شىء . . . . »

أى : إن أراد الله بكم سوءا لا ينفعكم ولا يدفعكم ما أشرت به عليكم من التفرق ، فإنه مصيبكم لا محالة .

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم . . لا يعلمون »

أى لم يكن فى دخولهم متفرقين دفع قدر الله الذى قضاه عليهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم ، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته قدر السلامة فوصى وقضى بذلك حاجة نفسه .

« إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها » فسرت الحاجة بوجوه أحدها :

خوفه عليهم من إصابة العين — ثانيهما : خوفه عليهم من حسد أهل مصر — ثالثها : خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر — رابعها : خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه .

وقد علق الفخر الرازى على تلك الآية بقوله : :

إن الإنسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ومأمور أيضاً بان يعتقد أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله تعالى له وان الحذر لا يغنى من القدر ، فقول يعقوب عليه السلام « يا بنى لا تدخلوا من باب واحد

وادخلوا من ابواب متفرقة » إشارة إلى رعايه الأسباب المعتبرة فى هـذا العالم ، وقوله : « ما اغنى عنكم من الله من شىء » إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شىء سـوى الله تعالى(١) .

« وإنه لذو علم علمناه » لتعليمناه إياه بالوحى ، حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر .

« ولكن اكثر الناس لا يعلمون » سر القدر ، وقيل : المراد لا يعلمون ان يعقوب عليه السلام بهذه المثابة من العلم .

---

(١) الفخرى الرازى : مفاتيح الغيب ٥:١٤٨

١٢ — حيلة يوسف فى إبقاء بنيامين عنده

الآيات :

«ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون . فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين» .

الآيات : ٦٩ — ٨٠

المعنى :

عاد إخوة يوسف إلى مصر فأكرم ضيافتهم وقرب إليه أخاه بنيامين مواسياً له ومزيلا ما بنفسه من ألم وتعب ، ومنبها له إلى الحيلة التى سيصنعها لحجزه من إخوته معه — وبعد أن زود إخوته بحاجتهم من الطعام أمر

بوضع الصواع الذى يكتالون به فى متاع أخيه بنيامين — وما إن بدأوا سبيل العودة حتى فوجئوا بمن ينادى عليهم يطلب منهم الانتظار لسرقتهم صواع الملك ويعد من يقدمه أو يدل عليه حمل بعير من الطعام ، فعجبوا لذلك وحلفوا بالله أنه لم يعرف عنهم إلا الإصلاح والخير وأنه ماكان ليحدث منهم أدنى تفكير فى السرقة بحال من الأحوال ، وقرروا أن من يوجد الصاع فى متاعه يجازى باستبعاده نزولا على حكم شريعتهم — وكانت المفاجأة الكبرى لهم لما أظهر التفتيش وجود الصاع فى متاع بنيامين وعادوا فى حيرة شديدة بين عهدهم مع أبيهم على إعادة أخيهم وبين حكمهم عليه بالاسترقاق لوجود الصاع فى متاعه ، فاستعانوا بكل سبل الاعتذار ليأخذ يوسف واحدا منهم بدلا من أخيهم بنيامين الذى يتسلى به عن فقد أخيه أبوهم الكبير الحزين فلا يكون من يوسف إلا الرفض وعدم القبول ، ولما لم يجدوا نتيجة لاعتذارهم فكروا فى العودة وقرر كبيرهم أنه سيبقى مكانه حتى يحكم الله فى أمره بعد أن ذكرهم بعهدهم مع أبيهم وما حدث منهم ليوسف من قبل .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه » أى ضم إليه بنيامين .

« قال إنى أنا أخوك » يوسف

« فلا تبتئس بما كانوا يعملون » أى لاتحزن بما كانوا يفعلون بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك .

روى أن بنيامين قال له : لن أفارقك فرد عليه يوسف : قد علمت حزن والدك بسببى ، فإذا أبقيتك ازداد حزنه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك لما لا يحسن ؛ فقال بنيامين : لا أبالى فافعل ما بدالك — وقال

له يوسف: إنى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك قد سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم ، قال : فافعل .

« فلما جهزهم بجهازهم »أى وفى لهم الكيل وزاد كلا منهم على ما روى حمل بعير .

« جعل السقاية فى رحل أخيه » هى الصواع ، قيل : كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به — وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها — وقيل : كانت من فضة مموهة بالذهب — وقيل : كانت من ذهب — وقيل : كانت مرصعة بالجواهر .

« ثم أذن مؤذن » أى نادى مناد ، يقال : آذنه : أعلمه ، وأذن : أكثر الإعلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم ما قيل .

« أيتها العير إنكم لسارقون » العير : الإبل التى عليها الأحمال — سميت بذلك لأنها تذهب أو تجىء ، والمراد : أصحاب العير كقولك : يا خيل الله اركبى — وذلك من المجاز المرسل لعلاقة المكانية أو الآلية . ونسبة السرقة إليهم جميعا ، وقد وجد الصواع فى رحل واحد منهم كما تقول : بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم .

« قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون » أى أى شىء تفقدونه ؟

أو ما الذى ضاع منكم ؟ وصيغه المستقبل : لاستحضار الصورة .

والعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم : ماذا سرق منكم على ما قيل لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شىء فضلا عن أن يكونوا هم السارقين له .

« قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » .

أى أنا بحمل البعير كفيل أؤديه لمن جاء به أو دل عليه مكافأة له .

« قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » .

أى ما كنا أبدا لنوصف بالسرقة إذ هى منافية لحالنا — وفى حلفهم «بتا لله» معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من اتهامهم بالسرقة مع ماشاهدوه من حالهم : فقد روى أنهم كانوا يغطون أفواه إبلهم لئلا تنال من زروع الناس وطعامهم شيئا ، واشتهر أمرهم فى مصر بالعفة والصلاح والمثابرة على فنون الطاعات ، ولأنهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم(١) .

« قالوا فما جزاؤه » الضمير للصواع أى : فما جزاء سرقته .

« إن كنتم كاذبين » فى جحودكم وادعائكم البراءة منه ، وقيل : يعود على السارق ، أى : فما جزاؤ السارق إن كنتم كاذبين فى قولكم : « وما كنا سارقين له » .

« قالوا جزاؤه من وجد فى رحله » أى جزاؤ سرقته أخذ من وجد الصاع فى رحله ، وكان حكم السارق فى آل يعقوب أن يسترق سنة ، فلذلك استفتوا فى جزائه .

واختاروا التعبير بوجد فى رحله دون « سرق » مع أنه المراد إشارة إلى كمال نزاهتهم حتى كأن أنفسهم لا تطاوعهم وألسنتهم لا تساعدهم على التلفظ به مثبتا لأحدهم بأى وجه كان ، وكأنهم تأكيدا لتلك الإشارة عدلوا عن : « وجد عنده » إلى : « من وجد فى رحله » .

« فهو جزاؤه » أى فأخذه جزاؤه ، وهو تقرير للحكم السابق بإعادته ، كما فى قولك : حق الضيف أن يكرم فهو حقه — وليس بمجرد تأكيد .

---

(١) الألوسى : روح المعانى ١٣ : ٢٤ ، ٢٥ والزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٣٤

« كذلك » أى مثل ذلك الجزاء الأوفى .

« نجزى الظالمين » بالسرقة . والظاهر أن هذا من تتمة كلام الإخوة فهو تأكيد للحكم المذكور عقب تأكيد وبيان لقبح السرقة وقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون ، وقيل : هو من كلام أصحاب يوسف عليه السلام .

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » قيل : قال لهم من وكل بهم : لابد من تفتيش أوعيتكم ، فانصرف بهم فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال : ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا : والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فاستخرجوه منه .

وقد جاء الصواع مذكرا عدة مرات وأنث هنا ، لأنه يذكر ويؤنث أو يعود الضمير المؤنث إلى السقاية ، فلعل يوسف كان يسميه سقاية ويسميه خدمه صواعا .

« كذلك كدنا ليوسف » أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وحملهم عليه بوساطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا « كدنا ليوسف » أى صنعنا ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما ترتب عليه .

« ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » تفسير للكيد وبيان له كأنه قيل: لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع فى متاعه فى حكم الملك وقضائه إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق فى حكم الملك : أن يضاعف عليه ثمن الشىء المسروق ويضرب لا أن يستعبد ويسترق كما كان فى شريعة يعقوب عليه السلام لذلك ما كان يوسف عليه

السلام ليتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بما نسب إليه من السرقة بحال من الأحوال .

« إلا أن يشاء الله » أى ما كان يأخذه إلا بإذن الله وإذنه فيه .

« نرفع درجات من نشاء » فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه .

« وفوق كل ذى علم عليم » فوقه أرفع درجة منه فى علمه ، أوفوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم وهو الله .

فإن قيل : ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسنا ، فعلى أى وجه كان ذلك الكيد وما هو إلا بهتان ، واتهام بالسرقة لمن لم يسرق فى قوله :

« إنكم لسارقون » وتكذيب لمن يكذب فى قوله : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » أجيب : بأن ذلك فى صورة البهتان وليس ببهتان فى الحقيقة ، لأن قوله : « إنكم لسارقون » تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف ، وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف — وقوله : « إن كنتم كاذبين » فرض لانتفاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكذيبا .

هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقول سيدنا إبراهيم عليه السلام : « هى أختى » لتسلم من يد الكافر ، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع فى المفاسد ، وقد أعلم الله تعالى فى هذه الحيلة التى لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلما وذريعة إليها فكانت حسنة جميلة ، وانزاحت عنها وجوه القبح(١) .

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٢٣٥

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » التعليق على الشرط يدل على أن السرقة فى حق بنيامين وأخيه ليس مجزوما بها كأنهم قالوا إن كان هذا الذى رمى به بنيامين حقا فإن الذى رمى به يوسف من قبل حق .

والمراد بالأخ : يوسف عليه السلام ، وتنكيره لأن الحاضرين لم يكن لهم علم به .

واختلف فيما نسبوه إلى يوسف من السرقه فقيل : كان أخذ فى صباه صنما لجده أبى أمه فكسره وألقاه بين الجيف فى الطريق — وقيل : كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها اسحق ، فورثتها عنه أكبر بناته وقد تولت حضانة يوسف بعد وفاة أمه ، وكانت لا تطيق بعده عنها ، فلما شب أراد يعقوب أن يأخذه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لى أفعل به ما شئت فتركه يعقوب عندها حتى ماتت .

« فأسرها يوسف فى نفسه » الضمير لما يفهم من الكلام والمقام — أى أضمر الحزازة التى حصلت له عليه السلام مما قالوا .

« ولم يبدها لهم » أى لم يظهرها لهم لا قولا ولا فعلا صفحا لهم وحلما وهو تأكيد لما سبق .

« قال » أى فى نفسه .

« أنتم شر مكانا » بدل من : أسرها أى أنتم شر منزلة فى السرقه لأنكم سارقون فى الحقيقة لسرقتكم أخاكم من أبيكم .

« والله أعلم بما تصفون » أى يعلم علما بالغا أن الأمر ليس كما تصفون

من صدور السرقة منا ، فصيغة أفعل لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه تعالى على علمهم .

« قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين » .

استعطفوا يوسف فذكروه بحق أبيهم يعقوب وأنه شيخ كبير السن أو كبير القدر ، وأن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه أن ولداله هلك وهو عليه حزين وأنه مستأنس بأخيه ، وعرضوا عليه أن يأخذ واحدا منهم بدلا منه على سبيل الاسترهان أو الاستعباد « إنا نراك من المحسنين» إلينا ، فأتمم إحسانك. أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها .

« قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون» .

ظاهر هذا الكلام : أنه وجب أخذ من وجد الصواع فى رحله واستعباده ، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلما فى مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم . وباطنه : أن الله أمرنى وأوحى إلى بأخذ بنيامين لمصلحة أو لمصالح جمة علمها فى ذلك ، فلو أخذت خلاف من أمرنى بأخذه كنت ظالما وعاملا على خلاف الوحى .

« فلما استيئسوا منه » أى يئسوا من يوسف عليه السلام وإجابته لهم إلى مرادهم — والسين والتاء زائدتان للمبالغة أى : يئسوا يأسا كاملا لأن المطلوب المرغوب مبالغ فى تحصيله .

ولعل حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لما شاهدوه من استعاذته بالله تعالى مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى اقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويستعاذ بالله تعالى منه ، ومن تسميته ذلك ظلما بقوله : « إنا اذا لظالمون » .

« خلصوا نجيا » أى اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ، يناجى بعضهم بعضا فى تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم .

« قال كبيرهم » فى السن وهو روبيل ، وقيل رئيسهم وهو : شمعون ، وقيل : كبيرهم فى العقل والرأى وهو يهوذا .

« ألم تعلموا » كأنهم أجمعوا عند التناجى على العودة جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم : « ألم تعلموا .

« أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله » أى عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى ، وكونه منه تعالى لأنه بإذنه فكأنه صدر منه تعالى أو هو من جهته سبحانه .

« ومن قبل ما فرطتم فى يوسف » أى ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه وقد قلتم ما قلتم — .

وقد قيل فى « ما » إنها صلة أى : ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم ، أو مصدرية على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو « من قبل » ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم فى يوسف ، أو النصب عطفا على مفعول : « ألم تعلموا » وهو : « أن أباكم » كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم من قبل فى يوسف ، وأن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه — أى قدمتموه فى حق يوسف من الجناية العظيمة — .

وقيل : إنها مزيدة والجملة حالية ، وقد رأى الألوسى أن القول بزيادتها أحسن الوجوه وأسلمها[١] ، لكنى لا أوافقه على القول بزيادة حرف فى

(١) الألوسى : روح المعانى ١٣ : ٣٥

القرآن لأنه ما من حرف فيه إلا قد جاء لمعنى يقتضيه ولا يتم المعنى إلا به تعالى الله أن يكون فى كلامه ما لا فائدة منه .

« فلن أبرح الأرض » لن أفارق أرض مصر .

« حتى يأذن لى أبى » فى الانصراف إليه .

« أو يحكم الله لى » بالخروج منها ، أو بالانتصاف ممن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الاسباب .

« وهو خير الحاكمين » لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق .

١٣ – اجتماع المصائب على يعقوب

الآيات :

« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حفظين . وسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصدقون. قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم. وتولى عنهم وقال يأسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالو اتا لله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون » .

الآيات : ٨١ — ٨٦

المعنى :

بعد أن قرر الأخ الأكبر البقاء بمصر إلى جوار بنيامين حتى يحكم الله فى أمره تحرجا من مقابلة أبيه بعد العهد معه على حفظ بنيامين و بعد ماحدث لأخيه يوسف ، طلب من إخوته العودة وإبلاغ أبيهم باستعباد العزيز لأخيهم بنيامين بعد أن ضبط سارقا على مرأى ومسمع من أهل مصر ، والذين قصدوا العزيز للحصول على الطعام ، وقد ارتاب يعقوب فى كلامهم وسأل الله الصبر ورجاه أن يرد إليه جميع الغائبين من أولاده ، ثم اعتزلهم وزاد حزنه على يوسف ، حتى كاد يفقد بصره ، فلما طلب منه التخفيف من حزنه أعلن أنه لا يتوجه بشكواه إلا إلى الله وحده .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » .

الظاهر أن هذا القول من تتمة كلام كبيرهم ، وقيل : إنه من كلام يوسف عليه السلام .

وقال بن عطية معناه : قولنا لك إن ابنك سرق إنما هى شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ماجرى والعلم فى الغيب إلى الله تعالى ليس ذلك فى حفظنا هذا وقيل معناه : ماشهدنا به عند يوسف أن السارق يسترق فى شرعك كان بحسب علمنا فى ذلك ، وما كنا نحيط علماً بالغيب فنعلم أن السرقة تخرج من متاع أحدنا ، بل حسبنا أن ذلك لايحدث قط فشهدنا عنده حين سألنا بعلمنا(١) .

« وسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » أى أرسل من تثق به إلى أهل القرية وأصحاب العير واسألهم عن القصة ويراد بالقرية أهلها وهى مصر ، وبالعير : أصحابها أيضاً وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ، وقيل : من أهل صنعاء وذلك على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية وفائدة ذلك : المبالغة فى اشتهار أمر السرقة وظهوره .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً » أى زينت لكم أنفسكم أمراً أردتموه ، وإلا فمن أين علم العزيز وأعوانه أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل : فماذا كان عند قول ذلك القائل للإخوة ماقال ؟ فقيل : قال أبوهم عندما رجعوا إليه

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٢٧

فقالوا له ماقالوا : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » ، وقد حذف ذلك للإيذان بأن مسارعتهم إلى قبول ذلك القائل ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان ، وإنما المحتاج إليه جوابه(١) .

« فصبر جميل » أى : فأمرى صبر جميل بحذف المبتدأ ، أو فصبر جميل أجمل بحذف الخبر .

« عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً » أى بيوسف وأخيه بنيامين وغيره .

« إنه هو العليم » بحالى فى الحزن والأسف .

« الحكيم » الذى لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة ومصلحة .

« وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف » أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به لما ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم وجعل يتفجع ويتأسف ، ونداء الأسف من المجاز على معنى : هذا زمانك فاحضر ، وهو يضاف لياء المتكلم فقلبت ألفاً كما قيل فى : ياغلامى ياغلاما ، وقيل : هو على الندبة وحذفت هاء السكت . وبين « أسفى » و « يوسف » جناس لطيف غير متكلف يوضح المعنى ويزين الكلام .

وقد تأسف على يوسف وحده دون أخويه لأنه أصل البلايا وما جاء بعده ترتب عليه ، ولعدم تأكده بحياته أو موته بخلاف أخويه ، ولأنه كان أحب أولاده إليه ، وذلك يجعل حزنه عليه مستمراً وجديداً على الرغم من تقادم العهد به .

« وابيضت عيناه من الحزن » أى من كثرة البكاء الذى أذهب سواد عينيه وحوله إلى بياض كدر ، فابيضاض العين من كثرة البكاء وكثرة

(١) الألوسى : روح المعانى ١٣ : ٣٧

البكاء من شدة الحزن ، فأقيم سبب السبب مقامه لظهوره — وابيضاض العينين قيل : إنه كناية عن العمى وذهاب البصر بالكلية وارتضى ذلك « أبو حيان » لقوله تعالى بعد ذلك : « .. فارتد بصيرا »(١) وقيل : ليس كناية عن ذلك والمراد من الآية أنه عليه السلام صارت فى عينيه غشاوة بيضتهما وكان عليه السلام يدرك إدراكا ضعيفاً .

« فهو كظيم » أى مملوء غيظاً على أولاده ولا يظهر مايسوؤهم ، من كظم السقاء إذا شده على ملئه .

« قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف » أى قال له الأبناء ، وقيل : غيرهم من أتباعه عليه السلام ، لاتزال تذكر يوسف تفجعاً عليه .

« حتى تكون حرضا » أى حتى تشرف على الهلاك مرضا .

« أو تكون من الهالكين » أى من الميتين .

« قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » البث : الحزن الشديد وسمى بذلك لأنه من صعوبته لا يطاق حمله فيبث أى ينشر ويوزع .

أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أتوجه بالشكوى إلى ربى وألتجىء إليه فدعونى وشكواى ، وهذا معنى توليه عنهم، أى: فتولى عنهم إلى الله والشكوى إليه — قيل : دخل على يعقوب جار له فقال : يايعقوب قد تهشمت وفنيت وما بلغت من السن مابلغ أبوك — فقال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف ، فأوحى الله إليه : يايعقوب أتشكونى إلى خلقى ؟

قال : يارب خطيئة أخطأتها فاغفر فغفر له ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله .

« وأعلم من الله مالا تعلمون » أى أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب .

---

(١) يوسف : ٩٦

١٤ — عفو يوسف عن إخوته بعد تعارفهم عليه

الآيات :

«يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون . فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» .

الآيات : ٨٧ — ٩٢

المعنى :

تضاعفت أحزان يعقوب عليه السلام على يوسف وأخيه حتى كاد يذهب بصره ومع ذلك فإنه بنور إيمانه كان يحس أن شعاعا من الأمل فى عودة يوسف وأخيه يتراوى له مما جعله يطلب من أبنائه العودة إلى مصر ومحاولة تلمس أخبار أخويهما رجاء العثور عليهما وعدم اليأس من رحمة الله وقابل الأبناء يوسف فسألوه إمدادهم بالطعام بعد أن بلغ الضيق بهم أشده ، وكانت المفاجأة الكبرى فى إعلان يوسف لهم عن نفسه بعتاب رقيق لما كان منهم معه ومع أخيه ، فلا يكون منهم إلا الندم والاعتذار ، ولا يجدون منه إلا العفو والصفح وسؤال الله لهم المغفرة والرحمة .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » أمر بالذهاب إلى مصر التى تركوا بهم أخويهم للتحسس عنهما أى استقصاء خبرهما ، والتحسس الاستقصاء والطلب بالحواس ، ويستعمل فى الخـــير والشر ، وخص يوسف وأخاه ، لأن الذى أقام وقال : فلن أبرح الأرض إنما أقام مختارا . كما أنهم لا يحتاجون لأمرهم بالتجسس له لكونه أخاهم .

« ولا تيأسوا من روح الله » أى لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه وقرىء « من روح الله » بضم الراء أى من رحمته التى يحيا بها العباد .

« إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط فى حال من الأحوال ، أو تأكيدا لما يعلمونه من ذلك ، قال ابن عباس: إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء .

« فلما دخلوا عليه قالوا . . . » فى الكلام حذف تقديره : فعادوا من الشام إلى مصر ودخلوها .. ولم يذكر ذلك إيذانا بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يحتاج إلى الذكر والبيان .

« يأيها العزيز » خاطبوه بذلك تعظيما له .

« مسنا وأهلنا الضر » أى أصابنا الهزال من الشدة والجوع ، والمراد بالأهل : إما يشمل الزوجة وغيرها .

« وجئنا ببضاعة مزجاة » أى مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبـــة عنها واحتقارا ، قيل : كانت زيوفا ، وقيل . كانت ناقصة ، وقيل : كانت قليلة .

« فأوف لنا الكيل » الذى هو حقنا .

« وتصدق علينا » أى وتفضل علينا بالمسامحة والتغاضى عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة لأن الصدقات محظورة على الأنبياء ، وقيل : كانت تحل لغير نبينا . وقيل: كانت الصدقة محرمة وإنما قالوا ذلك تجوزا استعطافا منهم له كقولك لمن تشترى منه شيئا : هبنى من ثمنه كذا لا تقصد بذلك أن يهبك وإنما تقصد موافقته لك على ما تعرضه عليه ، وقيل : إنما خصوا بقولهم : « وتصدق علينا » أمر أخيهم « بنيامين » أى : أوف لنا الكيل فى المبايعة وتصدق علينا برد أخينا على أبيه .

« إن الله يجزى المتصدقين » قيل هى من المعاريض التى هى مندوحة عن الكذب وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكا كافرا على غير دينهم ، ولو قالوا : إن الله يجزيك بصدقتك فى الآخرة كذبوا فقالوا له هذه العبارة التى توهم أنهم أرادوه ، ويمكنهم إخراجه من ذلك بتأويل .

« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » .

الاستفهام للتقريع والتوبيخ أى : ما أشد ما ارتكبتم مع يوسف كما يقال : هل تدرى من عصيت ؟ وقيل : « هل » بمعنى « قد » لأنهم كانوا عالمين — وقيل : لم يرد نفى العلم عنهم لأنهم كانوا علماء ، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم جاهلين .

« إذ أنتم جاهلون » قيل : صبيان ، مذنبون ، وقيل: جاهلون بما يجب من بر الأب وصلة الرحم وترك الهوى ، وقيل : جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف ، وقيل : جاهلون بالفكر فى العاقبة وعدم النظر إلى المصلحة .

« ما فعلتم بيوسف» بإبعاده عن أبيهم ، وإلقائه فى الجب ، وقولهم :

« إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » — والذى فعلوه بأخيه : تعريضه للغم بإفراده عن أخيـــه لأبيه وأمه وإزلالهم له حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل وإيذائهم له بأنواع الأذى .

« قالوا : ءإنك لأنت يوسف ... .

أدركوا من كلامه لهم أنه كلام واحد من نسل إبراهيم عليه السلام وقيل : إنه تبسم فعرفوه بثناياه ، وقيل : ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء .

« قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا » سألوه عن نفسه فرد عليهم « . . . وهذا أخى » لأنه سبق قوله : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » فـكان فى ذكر أخيه بيان لما سألوا عنه وإن كان معلوما عندهم ، وتوطئة لما ذكر بعد من قوله : « قد من الله علينا » أى بالإجتماع بعد الفرقة والأنس بعد الوحشة .

« إنه من يتق ويصبر » أى من يخف الله وعقابه ويصبر عن المعاصى وعلى الطاعات .

« فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » وضع الاسم الظاهر « المحسنين » موضع الضمير « أجرهم » لاشتماله على المتقين والصابرين .

« قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » أى فضلك الله علينا بالتقوى وسيرة المحسنين ، وقد أخطأنا فيما فعلنا ولم نتق الله ، ولذلك أعزك الله بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك .

« وخاطئين » من : خطىء إذا تعمد الخطأ ، وأما أخطأ : فقصد الصواب ولم يوفق له .

« قال لا تثريب عليكم اليوم » أى لا لوم ولا عقوبة لكم فى هذا اليوم الذى هو مظنة العقوبة واللوم فما ظنكم بغيره من الأيام .

« يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » لما دعا لهم بالمغفرة أخبر عن الله بالصفة التى هى سبب الغفران وهو أنه تعالى أرحم الرحماء ، فهو يرجو منه قبول دعائه لهم بالمغفرة .

١٥ — يعقوب يرتد بصيرا وتتحقق رؤيا يوسف

الآيات :

إذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين .

الآيات : ٩٣ — ١٠١

المعنى :

بعد أن تعرف إخوة يوسف عليه وندموا على ما وقع منهم وكان عفوه عنهم طلب منهم إحضار جميع الأهل بعد أن أعطاهم قميصه ليكون دليله إلى أبيه وليكون سببا فى رد بصره إليه كما أوحى الله إليه — وبينما كانوا فى طريق عودتهم أحس أبوهم بفرج قادم وأن شيئا يتعلق بيوسف فى الطريق إليه وأخـــبر من حوله بذلك فلم يهتموا لتأكدهم من عدم بقاء يوسف على الحياة حتى الآن ، وتجىء المفاجأة فى عودة الأبناء ومعهم القميص الذى يلقى على يعقوب فيعود إليه بصره ، ويرجون أباهم الصفح

على ما وقع منهم فيجيبهم لذلك ، وتوجه الجميع إلى مصر لمقابلة يوسف الذى رحب بهم وضم إليه أبويه وأجلسهما بجانبه ، وسجد الإخوة من حولهم والتفت يوسف إلى أبيه مشيرا إلى أفضال الله : فى تحقق الرؤيا وخروجه من السجن واجتماع الشمل بعد افتراق ونعمة الملك وتأويل الأحاديث سائلا ربه أن يلحقه بالصالحين من آبائه وأجداده .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« اذهبوا بقيصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً » .

قيل : هو القيص الذى توارثه يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولاسقيم إلا عوفى — وقيل : كان لإبراهيم عليه السلام كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار وكان من بعده لإسحاق ثم يعقوب ويوسف عليهم السلام ، وقيل : هو القميص الذى قد من دبر أرسله لأبيه ليؤكد له أنه عصم من الفاحشة — لكن الظاهر أنه قيص من ملابس يوسف بمنزلة قيص كل واحد(١) .

« فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً » ، عرف أن أباه قد عمى من الحزن من إخوته أو من الوحى ، وأن بصره سيعود إليه من جهة الوحى .

والذى حمل القيص قيل إنه : « يهوذا » الذى قال : لقد أحزنته بحمل القيص ملطخا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته .

« وأتونى بأهلكم أجمعين » أى يأتينى أبى ويأتينى آله جميعا ، قيل: كانوا سبعين أو ثمانين أو ثلاثة وتسعين أو ستة وتسعين .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٤٤

« ولما فصلت العير » أى انفصلت من عريش مصر قاصـــدة مـكان يعقوب وكان قريبا من بيت المقدس ـ يقال : فصل من البلد : إذا انفصل منه وجاوز دياره وزرعه .

« قال أبوهم » أى قال لأبناء أولاده ومن حوله من قومه .

« إنى لأجد ريح يوسف » أى أشم رائحته ، قال ابن عباس: شم ريحه من مسافة ثمانية أيام هبت ريح فحملت رائحته .

« لولا أن تفندون » أى لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى ، والتفنيـد : ذهاب العقل لعجز أو شيخوخة .

« قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم » أى فى بعد عن الصواب من شدة محبتك ليوسف وكثرة ذكرك له وتمنيك لقاءه ، وكانوا يعتقدون موته .

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً »

أى لما ألقى البشير القميص على وجه يعقوب عاد إليه بصره .

« قال ألم أقل لـكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون »

« ألم أقل لـكم » يعنى قوله : « إنى لأجد ريح يوسف » أو قوله :

« ولا تيأسوا من روح الله » وقوله : « إنى أعلم من الله مالا تعلمون » كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ، لـكن الظاهر أنه من مقول القول ويراد به : مالا تعلمون من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا وبينه ، وقيل : مالا تعلمون من صحة رؤيا يوسف عليه السلام ـ وقيل : من بلوى الأنبياء بالحزن ونزول الفرج ، وقيل : من إخبار ملك الموت إياى وكان أخبره أنه لم يقبض روحه .

روى أن يعقوب عليه السلام سأل البشير عن حال يوسف فقال له : هو ملك مصر ، فقال : ما أصنع بالملك على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، فقال : الآن تمت النعمة .

« قال سوف أستغفر لكم ربي . . . » قيل : أخر الاستغفار إلى وقت السحر ، وقيل : إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة وقيل : ليتعرف حالهم فى صدق التوبة وإخلاصها ، وقيل : أراد الدوام على الاستغفار لهم .

« فلما دخلوا على يوسف » فى الكلام إيجاز بالحذف تقديره : فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى تلقوا يوسف — قيل : وجه يوسف إلى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز إليه بمن معه وخرج يوسف والملك فى أربعه آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم ، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال : يايهوذا أهذا فرعون مصر ؟ قال : لا هذا ولدك ، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يامذهب الأحزان ، وقيل : إن يوسف قال له لما التقيا : يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامه تجمعنا ؟ فقال : بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك(١) .

« آوى إليه أبويه » أى ضمهما إليه واعتنقهما ، قيل هما أبوه وخالته — ماتت أمه فتزوجها وجعلها أحد الأبوين ، ولأن الخالة بمنزلة الأم كما أن العم بمنزلة الأب .

« وقال ادخلوا مصر » أى تمكنوا منها واستقروا فيها ، وتتعلق المشيئة بالدخول مكيفا بالأمن ، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن فى دخولهم أما دخولهم عليه قبل دخولهم مصر فقد يقصد به أنه حين استقبلهم نزل لهم فى بيت هناك ، فدخلوا عليه ، وضم أبويه ، ثم قال لهم : « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ٢ : ٣٤٤

« ورفع أبويه على العرش » لما دخل مصر وجلس فى مجلسه مستوياً على سريره واجتمعوا إليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير ، ويجوز أن يكون قد خرج فى قبة من قباب الملوك التى تحمل على الدواب ، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه ، وقال بعد ذلك : ادخلوا مصر .

« وخروا له سجداً » قيل إن الضمير فى « خروا » يعود على أبويه وإخوته ، وقيل وهو الأنسب إنه يعود على إخوته وجميع من كان يدخل عليه ولا يدخل فى ذلك أبواه ، فقد رفعهما على سرير ملكه تعظيما لهما(١) .

وقد يسأل فيقال : كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله ؟ ويجاب بأن السجدة عندهم كانت تجرى مجرى التحية كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس ، أو كان السجود بمعنى التواضع لا السقوط على الأرض .

وقيل وهو ما أرجحه إن الضمير فى « له » يعود إلى الله أى خروا لله سجداً شكراً على ما أوزعهم من هذه النعمة ويتأول قوله تعالى : « رأيتهم لى ساجدين » بمعنى : رأيتهم لأجلى ساجدين .

« وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل . . . . » .

أى إن سجودكم هذا عاقبة ما رأيته من سجود الشمس والقمر والكواكب ، والمحذوف فى « من قبل » تقديره : من قبل هذه الحوادث

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٤٨

التى وقعت بعد رؤياى «قد جعلها ربى حقاً» أى صادقة فقد تحقق فى اليقظة ما رأيته فى المنام .

« وجاء بكم من البدو » أى من البادية لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب دواب ينتقلون فى المياه والمناجع .

« من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » أى من بعد أن أفسد بيننا ، وأصله من نخس الراكب الدابة لحملها على الجرى وأسند النزغ إلى الشيطان لأنه الموسوس كما قال تعالى : « فأزلهما الشيطان عنها . . . »(١) .

« إن ربى لطيف لما يشاء » أى لطيف التدبير لما يشاء من الأمور .

« رب قد اتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث » .

« من » فى « من الملك » و « من تأويل الأحاديث » للتبعيض ، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر ، وبعض التأويل .

« أنت وليى فى الدنيا والآخرة » أى أنت الذى تتولانى بالنعمة فى الدارين ، وبوصل الملك الثانى بالملك الباقى .

« توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » لما عدد نعم الله عليه تشوق إلى لقاء ربه واللحاق بالصالحين من سلفه ورأى أن الدنيا كلها فانية فتمنى الموت .

وقال ابن عباس : لم يتمن الموت حى غير يوسف ، والذى

---

(١) سورة البقرة : ٣٦

يظهر أنه ليس فى الآية تمن للموت ، وإنما عدد نعمه عليه ، ثم دعا الله أن يتم عليه النعم فى باقى أمره ، أى توفنى إذا حان أجلى على الإسلام واجعل لحاقى بالصالحين ، وإنمـا تمنى الوفاة على الإسلام لا الموت ، والصالحين : أهل الجنة أو الأنبياء أو آباؤه : إبراهيم وإسحق ويعقوب(١) .

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٤٩

١٦ — دروس وعبر

الآيات :

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسئلهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعلمين وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنهـا معرضون ، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ، وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون . حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

الآيات : ١٠٢ — ١١١

ختمت السورة الكريمة بالآيات السابقة التى تحدد العظات والعبر التى تشتمل عليها ويمكن إجمالها فيما يلى : —

١ — أنها من أوضح الأدلة على نبوة سيدنا رسول الله ﷺ وصدقه فيما جاء به من عند الله عز وجل حيث لم يقرأ ذلك فى كتب ولم يأخذه عن معلم .

٢ — تخفيف الحزن الشديد الذى كان يعترى رسول الله ﷺ لعدم

إيمان كثير من الناس به بعد تعبه ومعاناته فى إقناعهم ببيان أن الهداية والإضلال من الله .

٣ — أن جهاد الرسل فى دعوة الناس إلى الإيمان لمصلحة الناس التى لا يبغون منهم أجرا عليها .

٤ — قصص الأنبياء مع أقوامهم المؤمن منهم والمكذب من أوضح السبل وأظهر دلائل العظة والاعتبار .

٥ — أن الإيمان الحقيق هو الذى يكون خالصا لايخالطه شرك.

٦ — أن وعد الله لا يتخلف بنصر أتباعه وإهلاك أعدائه مهما طال الزمن .

٧ — دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام الناس إلى عبادة الله وحده بحجة واقتناع لااختلاف بينها .

٨ — حياة الرسل حافلة بالمحن والمتاعب مختومة بالنصر والتأييد .

٩ — كل ما جاء فى القرآن فإنه حق وصدق ، وهدى للناس ورحمة .

ولما كانت تلك فوائد عامة فإن هناك عبراً خاصة بسيدنا يوسف عليه السلام ومنها : —

١ — اللجوء إلى الله والاستغاثة به عند حلول البلاء .

فقد استغاث يوسف بالله عندهم امرأة العزيز به ، وعند طلب النسوة منه موافقتها على ماطلبت ، كذلك استعان سيدنا يعقوب عليه السلام بالله

عند وصول قميص يوسف إليه ملطخاً بالدم ، وعند عودة الأبناء إليه من عند يوسف بدون بنيامين .

٢ — الاستمرار فى الدعوة إلى الله مهما ضاقت السبل .

فقد استغل يوسف وجوده فى السجن فى توجيه نزلاء السجن إلى قصد الله بالعبادة ونبذ الشرك .

٣ — اجتهاد الداعية فى نفى التهم عن نفسه كاجتهاده فى البعـــد عن مواقف التهم لجذب الناس إليه ، واقتدائهم به .

وقد تجلى ذلك فى تريث يوسف وعدم إسراعه بالخروج عند طلب الملك له حتى يسأل النسوة وتعلن الحقيقة للناس جميعاً .

٤ — الصبر على البلايا والمحن من أهم مايتذرع به الدعاة والمصلحون ، وقد ضرب سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما الصلاة والسلام أروع الأمثلة فى الصبر والعمل .

٥ — أمانة الإنسان على ما يوكل إليه .

٦ — شكر الله على نعمه التى أولانا بهـا .

٧ — العفو عند المقدرة ، والتجاوز عن زلات المسيئين .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » أى هذا الذى حكينا لك يامحمد من الأخبار الغيبية التى أوقفناك عليها ولم يكن لك ولا لقومك علم بها .

« وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم ... » أى ماكنت موجوداً مع بنى يعقوب حين صنعوا بيوسف مافعلوا ، وذلك تهكم بالمكذبين له عليه الصلاة والسلام ، وأن هذا الذى أتى به لو لم يكن من عند ربه لكان موجودا معهم فى زمانهم وهم يدركون تماماً أنه لم يوجد فى زمانهم ، ويعرف ذلك بالمذهب الكلامى .

« وهم يمكرون » أى يبغون الغوائل ليوسف ويتشاورون فيما يفعلون به أو يمكرون بيعقوب حين أتوا بالقميص ملطخا بالدم ، وفى الآية إيذان بأن ماذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وماينقله أهل الكتاب ليس على ماهو عليه .

« وماأكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » قيل فى وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش واليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت مشروحة شرحا وافيا ، ورجا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك سببا لإسلامهم فخالفوا رجاءه فواساه الله بهذه الآية .

والمراد بالناس : العموم : وقيل : أهل مكة . والحرص : طلب الشىء بأقصى مايمكن من الاجتهاد — أى : ولو بالغت فى طلب إيمانهم لايؤمنون لفرط عنادهم وتصميمهم على الكفر .

« وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين » .

الضمير فى « عليه » يعود على دين الله ، أى ماتبتغى أجرا على دين

الله ، وقيل : على القرآن ، وقيل : على التبليغ ، وقيل : على الأنباء بمعنى القول .

وفيه توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم، أو وما تسألهم على ماتحدثهم به وتذكرهم أن يقدموا لك منفعة كما يفعل حملة الأحاديث والأخبار إن هو إلا موعظة وذكر من الله للعالمين عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول الله ﷺ (١)

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »

« كأين » بمعنى « كم » الخبرية فهى تفيد التكثير ، ويراد بالآية : العلامة الدالة على توحيد الله وصفاته .

« يمرون عليها » أى يشاهدونها .

« وهم عنها معرضون » أى لا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

يؤكد الله فى تلك الآية مواساته للرسول ﷺ على كفر كثير من الناس بما جاء به بأن له تعالى آيات كثيرة فى العالم العلوى والسفلى تدل على وجوده وعلمه وقدرته ، وإنهم يمرون عليها ولا تؤثر فيهم .

« ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »

قيل : كانوا يقرون بوجود الإله بدليل قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله .. »(٢) إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا فى العبودية ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هم أهل الكتاب أشركوا بالله من حيث كفروا بنبيه ، وقيل : هم كفار العرب أقروا

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٥١
(٢) سورة العنكبوت : ٦١

بالخالق الرازق المحيي المميت وكفروا بعبادة الأوثان والأصنام ، وقيل : هم أهل مكة قالوا : الله ربنا لا شريك له والملائكة بناته فأشركوا ولم يوحدوا ، وقيل : هم المنافقون جهروا بالإيمان وأخفوا الكفر ، وقيل : جميع الخلق مؤمنهم بالرسول وكافرهم ، فالكفار تقدم شركهم والمؤمنون فيهم الشرك الخفي (١)

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله » استفهام إنكار فيه توبيخ وتهديد .

و « غاشية » أي عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ، وإتيان الغاشية قيل : فى الدنيا لمقابلة ذلك لقوله تعالى : « أو تأتيهم الساعة بغتة » أى يوم القيامة ، فمعنى : بغتة : فجأة ، يقال : بغتهم الأمر بغتا وبغتة إذا فاجأهم من من حيث لم يتوقعوا ، وقوله : « وهم لا يشعرون » كالتأكيد لقوله « بغتة »

« قل هذه سبيلى » أى قل يا محمد هذه الطريقة والدعوة طريقى التى سلكتها وأنا عليها . والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان .

« أدعو إلى الله » تفسير للسبيل ، أى أدعو إلى الله لا إلى غيره من ملك أو إنسان أو كوكب أو صنم إنما دعائى إلى الله وحده .

« على بصيرة » أى حجة واضحة وبرهان متيقن ، وفى ذلك دليل على أن الدعوة إلى الله تعالى إنما تحسن مع هذا الشرط ، وهو أن يكون الداعى على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين .

« وسبحان الله » أى براءة الله من أن يكون له شريك .

« وما أنا من المشركين » لما أمر ﷺ أن يخبر عن نفسه أنه يدعو هو

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٥ : ٣٥١

ومن اتبعه إلى عبادة الله وحده ، وأمر أن يخبر أنه ينزه الله عن الشركاء أمر أن يخبر أنه في خاصة نفسه منتف عن الشرك وأنه ليس ممن أشرك بالله في وقت من الأوقات .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا » كان المشركون يقولون : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة » ، فقال الله : إن كل الرسل كانوا رجالا من البشر فلم تعجبوا من أمرك يا محمد ؟

« من أهل القرى » لأنهم أعلم وأحلم من أهل البوادى فإن فيهم جهلا وجفاء وقسوة .

« أفلم يسيروا في الأرض .. »

استفهام فيه توبيخ وتقريع ، والضمير في « يسيروا » عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر ومن عاند الرسول وأنكر رسالته ، أى هلا يسيرون في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة ويرون مصارع الأمم المكذبة فيعتبرون بذلك .

« ولدار الآخرة خير للذين اتقوا .. » .

أى وإن الدار الآخرة لخير للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه

« حتى إذا استيئس الرسل » أى من النصر أو من إيمان قومهم « وظنوا أنهم قد كذبوا » ، أى كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون . والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله قد تطاولت عليهم حتى استشعروا القنوط وتوهموا ألا نصر لهم في الدنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب .

« جاءهم نصرنا فنجى من نشاء » أى المؤمنون لأنهم الذين يستحقون

النجاة ، « ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » فى ذلك تهديد ووعيد لمعاصرى الرسول ﷺ .

« لقد كان فى قصصهم » الضمير يعود على الرسل ، أو على يوسف وأبيه وإخوته .

« عبرة لأولى الألباب » أى عظة لأصحاب العقول السليمة ، وخص « أولوا الألباب » لأنهم الذين ينتفعون بالعبر .

« ما كان حديثاً يفترى » اسم كان يعود على القصص أى ما كان القصص حديثا مختلقا بل هو حديث صدق ناطق بالحق جاء به من لم يقرأ الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا خالط العلماء فمحال أن يفترى هذه القصة .

وقيل : يعود على القرآن أى ما كان القرآن الذى تضمن قصص يوسف عليه السلام وغيره حديثاً يختلق ولكن كان تصديقا للكتب الإلهية المتقدمة .

« وتفصيل كل شىء » أى تفصيل كل أمر وقع ليوسف مع أبويه وإخوته إن كان الضمير عائدا على قصص يوسف ، أو كل شىء مما يحتاج إلى تفصيله فى الشريعة إن عاد الضمير إلى القرآن .

« وهدى » أى سبب هداية فى الدنيا .

« ورحمة » أى سببا لحصول الرحمة فى الآخرة .

« لقوم يؤمنون » وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك كما قال تعالى : « هدى للمتقين » .

وقد افتتحت السورة بالحديث عن القصة كواحدة من القصص الحسنة التى جاءت فى القرآن بلسان عربى مبين . وختمت كما ترى ببيان ما تقسم

به قصص القرآن من الصدق وما تقدمه من الهداية والعظات ، فجاء مطلع السورة مناسبا لمنتهاها ، ثم استهلت سورة الرعد بعدها بالحديث عن آيات الكتاب الكريم التى جاء كل ما فيها حقا وصدقا ، فناسب مطلع سورة الرعد ختام سورة يوسف ، وقد ذكرنا فى مستهل الحديث عن السورة وجه المناسبة بين سورة يوسف وختام سورة هود ، وهكذا ظهر التناسب واضحا بين مطلع السورة ومنتهاها وبينها وبين ما قبلها وما بعدها ، وذلك التناسب متحقق فى كل سور القرآن وآياته ، وصدق الله العظيم : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(١)

---

(١) سورة هود : ٣

أهم المراجع

المؤلف	الكتاب
١ — أبو حيان	البحر المحيط ط ثانية — دار الفكر
٢ — أبو السعود	إرشاد العقل السليم
٣ — أبو هلال العسكري	الصناعتين ط أولى
٤ — أحمد أحمد بدوى (د)	من بلاغة القرآن ط ثالثة
٥ — أحمد بن فارس	الصاحبي فى فقه اللغة ط ثالثة
٦ — أنيس المقدسى	تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى بيروت ١٩٦٠
٧ — الباقلانى	إعجاز القرآن تحقيق د/محمد خفاجى ط أولى
٨ — حنفى أحمد	التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن — دار المعارف
٩ — الخطابى	بيان إعجاز القرآن — ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن — دار المعارف
١٠ — درويش الجندى (د)	النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى نهضة مصر ١٩٦٩م
١١ — الرازى	نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز
١٢ — الرازى	مفاتيح الغيب ط ثانية
١٣ — الزمخشرى	الكشاف ط بيروت ١٣٢٤ هـ
١٤ — سيد قطب	التصوير الفنى فى القرآن ط ثالثة

اسم المؤلف	الكتاب
١٥ — السيوطى	الإتقان فى علوم القرآن تحقيق: محمد أبو الفضل ط أولى .
١٦ — السيوطى	التحبير فى علم التفسير تحقيق د / فتحى فريد دار العلوم بالرياض
١٧ — السيوطى	معترك الأقران فى إعجاز القرآن تحقيق : على البجاوى
١٨ — الشريف الرضى	حقائق التأويل فى متشابه التنزيل — بغداد ١٩٣٦م
١٩ — الشريف المرتضى	الأمالى تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط أولى ١٩٥٤م

٢٠ — ضياء الدين بن الأثير المثل السائر تحقيق الدكتورين : الحوفى وطبانه — دار نهضة مصر

٢١ — عبد الغنى الراجحى (د) متشابه النظم فى قصص القرآن الكريم — رسالة دكتوراه بمكتبة أصول الدين بالقاهرة تحت رقم : ٧٦ تفسير وعلوم قرآن.

٢٢ — عبد الكريم الخطيب إعجاز القرآن ط أولى

٢٣ — عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ط أولى — دار التراث

٢٤ — القاضى عبد الجبار المغنى تحقيق : أمين الخولى دار الكتب المصرية ١٩٦٠م

٢٥ — الألوسى روح المعانى — دار التراث

٢٦ — محمد أحمد خلف الله (د) الفن القصصى فى القرآن الكريم ط ثانية ١٩٥٧ م .

٢٧ — محمد رشيد رضا تفسير المنار ط أولى
٢٨ — مصطفى الصاوى الجوينى (د) — منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن — دار المعارف
٢٩ — محمد على سلامه مذكرات فى علوم القرآن ط ثالثة ١٩٤٢م
٣٠ — محمد كامل حسين (د) متنوعات ط ثانية
٣١ — يحيى العلوى الطراز ط المقتطف ١٩١٤م

المحتوى

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٢٠١ / ١٩٨٥
الترقيم الدولى ٩ — ٤٨ — ١٠٠ — ٩٧٧

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة